الينابيع

بائِع السَّعادَة

وَقصَص أخرى

الدكتورة غراء حسين مهنّا

مَكتبة لبنان ناشِرون

الينابيع

بائِع السَّعادَة وَقصَص أخرى

مَكتبة لبنان ناشِرون

الينابيع

الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتّع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

اليـنـابـيـع

ISBN 977-16-0420-1
9789771604204

الشركَة المصريَّة العَالميَّة لِلنشر - لونجمان

مَكتبة لبنان ناشِرون

بائع السَّعادة

و قصص أخرى

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٩

رقم الإيداع ١٩٩٩/٩٥٨٦

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٤٢٠ - ١

رسوم : هاني طلبة

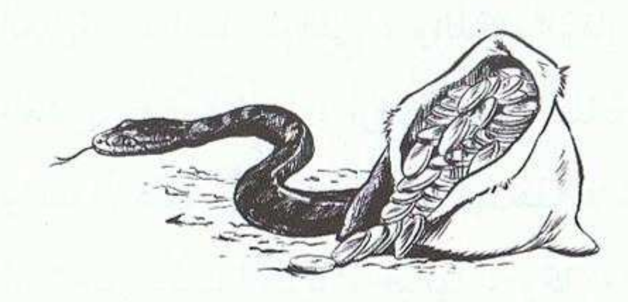
طبع في دار نوبار للطباعة . القاهرة



بائع السَّعادة

و قصص أخرى

الدكتورة غراء حسين مهنا



مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الأميرةُ « عينُ الحياة »

في بلادٍ بَعيدَةٍ ، حِكايَتُها غَريبَةٌ ، عاشَتْ أميرَةٌ جَميلَةٌ ، اسْمُها « عَيْنُ الحَياة » ، وكانَتْ في جَمالِها كَحُورِيَّةٍ مِنَ الجَنَّةِ : فالبَشَرَةُ بَيْضاءُ ناعِمَةٌ ، والشَّعْرُ أسْوَدُ فاحِمٌ ، والعَيْنانُ سَوْداوانِ واسِعَتانِ ، والفَمُ كَخاتَمِ سُلَيْمانَ ، والشِّفاهُ باسِمَةٌ ، تُسْفِرُ عَنْ أسْنانٍ لامِعَةٍ ، كَأَنَّها الدُّرُّ النَّضيدُ .

وقَدْ زَيَّنَ اللَّهُ جَمالَها الفَتّانَ ، وحُسْنَها الأخّاذَ بالحِكْمَةِ العالِيَةِ ، والعَقْلِ الواعِي ، والذَّكاءِ الوَقّادِ . ولَمّا بَلَغَتِ العِشْرينَ مِنْ عُمْرِها ، أرادَ والِدُها المَلِكُ أنْ يُزَوِّجَها ، ولَكِنَّها رَغِبَتْ إلَيْهِ في أنْ يَتْرُكَ لَها هَذا الأمْرَ ، فَهِيَ تُريدُ أنْ تَخْتارَ بِنَفْسِها شَريكَ حَياتِها ، وكُلُّ ما طَلَبَتْهُ مِنْهُ أنْ

يُقيمَ مَأْدُبَةً كَبيرَةً ، يَدْعُوَ إلَيْها كُلَّ مَنْ يُريدُ أنْ يَتَقَدَّمَ لِلزَّواجِ بِها .

دُقَّتِ الطُّبولُ في البِلادِ ، وأُعْلِنَ هَذا الخَبَرُ السَّعيدُ : «يا عِبادَ اللَّهِ . . يا أهْلَ البِلادِ . . الأميرَةُ ‹‹عَيْنُ الحَياةِ ›› تَدْعو كُلَّ مَنْ يُريدُ الزَّواجَ بِها يَوْمَ الخَميسِ القادِمِ عَلى العَشاءِ في القَصْرِ المَلَكِيِّ . »

اسْتَعَدَّ الشَّبابُ لِهَذا الحَدَثِ العَظيمِ ، وتَمَنّى كُلُّ شابٍّ أنْ تَكونَ الأميرَةُ الفاتِنَةُ مِنْ نَصيبِهِ . وفي يَوْمِ الخَميسِ ، تَقَدَّمَ الأُمَراءُ والفُرْسانُ إلى القَصْرِ يَطْلُبونَ يَدَ الأميرَةِ الحَسْناءِ .

وكانَ « حَسَن » شابًّا فَقيرًا ، جَميلَ الطَّلْعَةِ ، راجِحَ العَقْلِ ، يَعْمَلُ صَيّادًا . ولَمْ يَمْنَعْهُ فَقْرُهُ مِنْ أنْ يَذْهَبَ إلى القَصْرِ كَما ذَهَبَ غَيْرُهُ مِنَ الشَّبابِ ، وأنْ يَتَقَدَّمَ طالِبًا يَدَ الأميرَةِ كَما تَقَدَّموا ، ولَمْ يَسْتَطِعْ أحَدٌ أنْ يُغَيِّرَ مِنْ رَأْيِهِ ، ويُبْعِدَهُ عَنْ هَذا الاتِّجاهِ .

تَقدَّمَ « حَسَن » مَعَ الأُمَراءِ والفُرْسانِ وغَيْرِهِمْ مِنَ الشَّبابِ إلى بَوّابَةِ القَصْرِ ، ولَكِنَّ الحُرّاسَ حاوَلُوا مَنْعَهُ مِنَ الدُّخولِ ، لأنَّ ثِيابَهُ لا تَليقُ بِالْمَكانِ ، غَيْرَ أنَّ الأميرَةَ الَّتي كانَتْ تُطِلُّ مِنْ شُرْفَتِها ، أشارَتْ لَهُمْ أنْ يَتْرُكوهُ يَدْخُلُ ، وأكَّدَتْ عَلَيْهِمْ ألا يَمْنَعوا أيَّ فَرْدٍ مِنَ الدُّخولِ مَهْما يَكُنْ شَأْنُهُ .

جَلَسَ الْمُتَقَدِّمونَ لِلزَّواجِ مِنَ الأميرَةِ حَوْلَ مائِدَةٍ كَبيرَةٍ، عَلَيْها أشْهى أنْواعِ الطَّعامِ ، وهُمْ يَرْتَدونَ أفْخَرَ الثِّيابِ وتَفوحُ مِنْهُمْ رائِحَةُ أغْلى العُطورِ ، وكانَ « حَسَن » بَيْنَهُمْ يَبْدو خادِمًا ضَعيفًا ، أوْ شَحّاذًا مِسْكينًا ، قَذَفَتْ بِهِ الظُّروفُ وَسَطَ هَذا الحَشْدِ مِنَ الشَّبابِ الأثْرِياءِ .

دَخَلَتِ الأميرَةُ عَلَيْهِمْ وهِيَ في أبْهى زينَةٍ ، يَفوقُ جَمالُها كُلَّ ما كانُوا يَتَصَوَّرونَهُ من حُسْنٍ فَتّانٍ ، وجَلَسَتْ عَلى رَأْسِ المائِدَةِ ، وحَيَّتْهُمْ جَميعًا ، وكانوا عَشَرَةً مِنْ خيرَةِ الشَّبابِ وبادَرَتْهُمْ بِالسُّؤالِ :

« ما الصِّفَةُ الَّتي تَسْمَحُ لَكُمْ بِالجُلوسِ في هَذا الْمَكانِ ؟»

فَقالَ الأوَّلُ : « أنا أميرٌ . » وقالَ الثّاني : « أنا وَزيرٌ . »

وتَوالَتِ الرُّدودُ : سِياسِيٌّ ؛ وسَفيرٌ ؛ وطَبيبٌ ؛ وتاجِرٌ ثَرِيٌّ .

وجاءَ دَوْرُ «حَسَن » فَقالَ :

« إنَّني ، يا سَيِّدَتي ، شابٌّ فَقيرٌ ، أعْمَلُ بِالصَّيْدِ ، أمّا الصِّفَةُ الَّتي تَسْمَحُ لي بِالجُلوسِ إلى هَذِهِ المائِدَةِ ، حَيْثُ أشْهى وأفْخَرُ أنْواعِ الطَّعامِ ، هِيَ أنَّني جَوعانُ . » ضَجَّتِ القاعَةُ بِالضَّحِكِ ، وأثارَتْ صَراحَةُ « حَسَن » دَهْشَةَ الأميرَةِ وعَجَبَها ، فَسَألَتْ سُؤالَها الثّاني : « كَيْفَ سَيُعامِلُني كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ بَعْدَ الزَّواجِ ؟»

قالَ أحَدُهُمْ : « كَمَوْلاتي . »

وقالَ الآخَرُ : « سَأكونُ عَبْدًا لَكِ ، وسَتَكونينَ سَيِّدَةَ

قَلْبي ، وسَتُصْبِحينَ الآمِرَةَ النّاهِيَةَ في حَياتي . . . و . . . و . . . »

وَلَمّا جاءَ دَوْرُ « حَسَن » وكانَ جالِسًا في آخِرِ المائِدَةِ قالَ : « سَأُعامِلُكِ ، يا سَيِّدَتي ، بِوَصْفِكِ زَوْجَتي وشَريكَةَ حَياتي . »

سُرَّتِ الأميرَةُ مِنْ إجابَةِ « حَسَن » ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْ كُلِّ واحِدٍ أنْ يَتَقَدَّمَ ويَحْكِيَ لَها قِصَّةً تَنْطَوي عَلى حِكْمَةٍ أوْ دَرْسٍ أوْ مَوْعِظَةٍ ، وأَعْلَنَتْ أنَّ لِصاحِبِ أحْسَنِ قِصَّةٍ الحَقَّ في الزَّواجِ بِها .

١ – خَيْرُ الأمورِ الوَسَط

تَقَدَّمَ الشّابُّ الأوَّلُ وكانَ أميرًا وقالَ : « سَأَقُصُّ عَلَيْكِ، يا سَيِّدَتي ، قِصَّةَ رَجُلَيْنِ أحَدُهُما يُسَمّى ‹‹كُلُّ شَيْءٍ فَوْرًا›› والثّاني اسْمُهُ ‹‹لا تَبْدَأْ أبَدًا›› ، كانا يَعْمَلانِ بِالزِّراعَةِ : يَغْرِسُ الأوَّلُ الحَبَّ قَبْلَ الأوانِ ، ويَسْقي

الأرْضَ قَبْلَ الأوانِ ، فَلا يَنْبُتُ الحَبُّ أبَدًا .

« أمّا الثّاني : فَهُوَ يَتَّخِذُ كُلَّ حَيْطَةٍ ، ويَتَرَدَّدُ طَويلاً لِكَيْ يَغْرِسَ الحَبَّ : فَهَذا العامُ شَديدُ الحَرارَةِ ، وذاكَ عامٌ مُمْطِرٌ ، والَّذي يَليهِ عاصِفٌ ، حَتّى يَفْسُدَ الحَبُّ ، ولا يَعودُ صالِحًا لِلزِّراعَةِ .

« وهَكَذا لَمْ يَنْجَحِ الرَّجُلانِ فَأحَدُهُما أسْرَفَ في العَجَلَةِ ، والآخَرُ أمْعَنَ في الحَذَرِ . »

٢ – حُسْنُ التَّصَرُّف

وقامَ الشّابُّ الثّاني ، وكانَ وَزيرًا ، لِيَحْكِيَ هَذِهِ القِصَّةَ فَقالَ : « كانَ المَلِكُ جالِسًا في شُرْفَتِهِ ، ذاتَ مَساءٍ ، وسَمِعَ رَئيسَ خَدَمِ القَصْرِ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ، ويَشْكو إلى اللَّهِ أمْرَهُ فَيَقولُ :

‹‹ إنَّ هَذا المَلِكَ لَيْسَ عادِلاً ؛ فَهُوَ لا يُقَدِّرُ ما أقومُ بِهِ

مِنْ جُهْدٍ . إنَّ عَمَلي شاقٌّ : فَأنا أسْتَيْقِظُ مُبَكِّرًا كُلَّ صَباحٍ ، وأقومُ بالإشْرافِ عَلى نَظافَةِ القَصْرِ ، وإعْدادِ الطَّعامِ لِلمَلِكِ ، وأظَلُّ أجْري طولَ اليَوْمِ هُنا وهُناكَ ، أُتابِعُ أعْمالَ الخَدَمِ ، وأُصْدِرُ لَهُمُ الأوامِرَ ، ومَعَ ذَلِكَ فَإنَّ راتِبي لا يَتَعَدَّى خَمْسينَ جُنَيْهًا ، في حينِ أنَّ الوَزيرَ يَرْكَبُ الرَّكائِبَ الفارِهَةَ ويَعيشُ حَياةً رَغْدَةً ، ويَحْصُلُ عَلى آلافِ الجُنَيْهاتِ . ››

« سَمِعَ الْمَلِكُ هَذا الكَلامَ فَقَرَّرَ أنْ يُلَقِّنَ رَئيسَ الخَدَمِ دَرْسًا لا يُنْسى .

« وبَعْدَ عِدَّةِ أيّامٍ مَرَّتْ بِالْمَمْلَكَةِ قافِلَةٌ مِنَ التُّجّارِ ، فَنادى الْمَلِكُ رَئيسَ الخَدَمِ وطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَسْتَكْشِفَ الأمْرَ ويَعْرِفَ مَنِ القادِمُ .

« ذَهَبَ رَئيسُ الخَدَمِ وعادَ بالإجابَةِ : ‹‹إنَّهُمْ مَجْموعَةٌ مِنَ التُّجّارِ . ››

« سَألَهُ الْمَلِكُ : ‹‹ أتَعْرِفُ مِنْ أيْنَ هُمْ قادِمونَ؟ ››

« ذَهَبَ رَئيسُ الخَدَمِ لِيَسْألَ وعادَ لِيَقولَ : ‹‹ مِنَ الشّامِ . ››

« فَسَألَ الْمَلِكُ : ‹‹إلى أيْنَ هُمْ ذاهِبونَ ؟››

« ‹‹ لا أعْرِفُ ، سَأسْألُهُمْ . ››

« وعادَ بالإجابَةِ : ‹‹ إنَّهُمْ يَقْصِدونَ اليَمَنَ . ››

« ‹‹كَمْ عَدَدُهُمْ ؟››

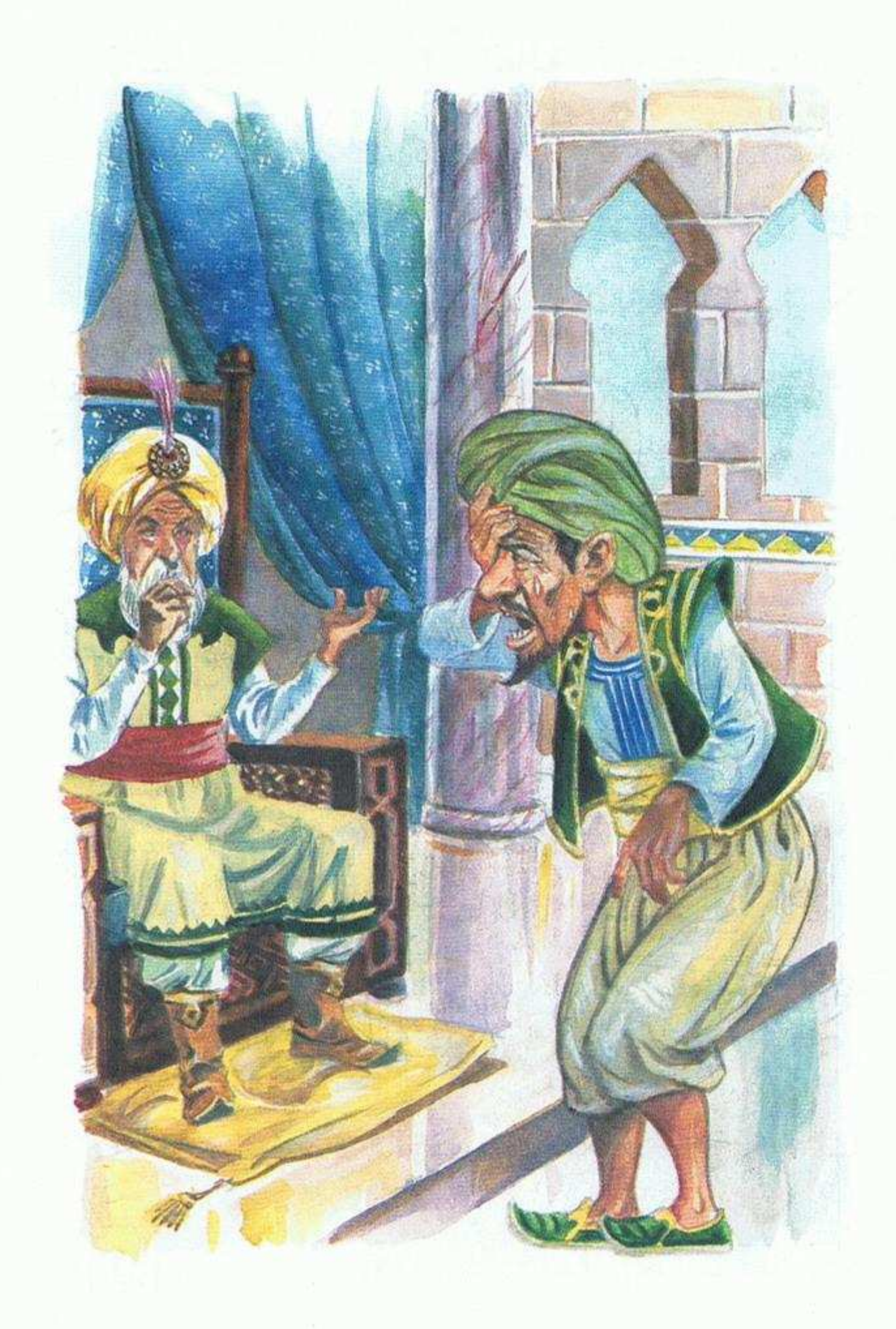
« ‹‹لا أدْري ، يا مَوْلاي . ››

« ‹‹ اذْهَبْ لِتَأْتِيَ بِالجَوابِ . ››

« ذَهَبَ رَئيسُ الخَدَمِ وعادَ لِيَقولَ : ‹‹ ثَلاثونَ رَجُلاً وامْرَأتانِ . ››

« والْمَلِكُ يَسْألُ الْمَزيدَ : ‹‹ هَلْ في نِيَّتِهِمُ التَّوَقُّفُ في الْمَمْلَكَةِ ؟ كَمْ مِنَ الوَقْتِ سَيَبْقَوْنَ ؟ ما هِيَ بِضاعَتُهُمْ ؟ ما . . . ؟ ماذا . . . ؟ مَنْ . . . ؟››

« وفي كُلِّ مَرَّةٍ لا يَعْرِفُ رَئيسُ الْخَدَمِ الإجابَةَ فَيَذْهَبُ



لِلسُّؤالِ ويَعودُ لاهِثًا ، تَتَتابَعُ أنْفاسُهُ ، ويَنْهَجُ نَهجًا شَديدًا ، حَتّى يَكادَ يَسْقُطُ مِنْ شِدَّةِ الإعْياءِ .

« ثُمَّ اسْتَدْعى الْمَلِكُ الْوَزيرَ وطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَسْتَكْشِفَ الأمْرَ ويَعْرِفَ مَنِ القادِمُ ، فَعادَ الْوَزيرُ بِالإجابَةِ التّالِيَةِ :

‹‹ إنَّهُمْ مَجْموعَةٌ مِنْ تُجّارِ بِلادِ الشّامِ ، يَقْصِدونَ اليَمَنَ ، وعَدَدُهُمْ ثَلاثونَ رَجُلاً وامْرَأَتانِ ، سَيَتَوَقَّفونَ لَيْلَةً واحِدَةً بِالْمَمْلَكَةِ ، وهُمْ يَحْمِلونَ مَعَهُمْ حَريرًا وعُطورًا وأقْمِشَةً وبَعْضَ الحُلِيِّ وتَمْرًا وبَخورًا . ››

« وهَكَذا عادَ الوَزيرُ مِنْ أوَّلِ مَرَّةٍ بِإجابَتِهِ عَنْ جَميعِ الأَسْئِلَةِ الَّتي طَرَحَها الْمَلِكُ .

« التَفَتَ الْمَلِكُ إلى رَئيسِ الخَدَمِ قائِلاً :

« ‹‹ أ تَدْري الآنَ لِماذا يَحْصُلُ الوَزيرُ عَلى آلافِ الجُنَيْهاتِ في حينِ تَحْصُلُ أنْتَ عَلى خَمْسينَ فَقَطْ ؟ ›› »

٣ – العاقِبَةُ

وَقَفَ شابٌّ ثالِثٌ كانَ تاجِرًا ثَرِيًّا فَقالَ : « أمّا أنا فَسأقُصُّ عَلَيْكُمْ قِصَّةَ الطَّمّاعِ والحَسودِ . كانَ هُناكَ رَجُلانِ يَعيشانِ مَعًا ، وكانا يَتَظاهَرانِ بالصَّداقَةِ ، فَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَراهُما أنَّهُما صَديقانِ حَميمانِ . وكانَ أحَدُهُما يَتَّصِفُ بالطَّمَعِ الشَّديدِ ، والآخَرُ بالحَسَدِ البَغيضِ ، فَهُوَ يَكْرَهُ أنْ يَنالَ أحَدٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْهُ ، ولا يُريدُ لأحَدٍ أنْ يَتَفَوَّقَ عَلَيْهِ في المالِ أوِ الصِّحَّةِ أو أيِّ أمْرٍ مِنَ الأُمورِ .

« خَرَجَ الصَّديقانِ ذاتَ صَباحٍ يَتَنَزَّهانِ فَقابَلا شَيْخًا طَيِّبًا قَدَّما لَهُ الْمُساعَدَةَ ، فَطَلَبَ مِنْ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما أنْ يَتَمَنّى أُمْنِيَةً ، وسَيُحَقِّقُها لَهُ ، ومَنْ يَتَمَنّ أوَّلاً يَحْصُلِ الثّاني الَّذي يَليهِ عَلى ضِعْفِ ما يَحْصُلُ عَلَيْهِ الأوَّلُ .

« قالَ الطَّمّاعُ : ‹‹ تَمَنَّ أنْتَ أوَّلاً ، يا صَديقي ›› ، وذَلِكَ حَتّى يَحْصُلَ هُوَ على الضِّعْفِ .

« وفَكَّرَ الحَسودُ فَقالَ لِنَفْسِهِ : ‹‹ إذا تَمَنَّيْتُ مالاً حَصَلَ

صَديقي عَلى ضِعْفِهِ ، وإذا تَمَنَّيْتُ ذَهَبًا أوْ قُصورًا أو أيَّ شَيْءٍ لَهُ قيمَةٌ كَبيرَةٌ فَسَيَحْصُلُ صاحِبي عَلى الضِّعْفِ . ولَكِنْ إذا تَمَنَّيْتُ شَرًّا حَصَلَ هُوَ عَلى ما هُوَ أشَرُّ مِنْهُ . ››

« قالَ الحَسودُ : ‹‹ إنَّني أتَمَنّى أنْ أفْقِدَ إحْدى عَيْنَيَّ . ››

« وهَكَذا أصْبَحَ أحَدُهُما بِعَيْنٍ واحِدَةٍ ، وأصْبَحَ الآخَرُ ضَريرًا . »

٤ – الجَهْلُ

وَقَفَ الشّابُّ الرّابِعُ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ فَقالَ : « أنا سَفيرٌ لِوَطَني حَيْثُ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ ، وقَرَأْتُ الكَثيرَ ، واطَّلَعْتُ عَلى الكَثيرِ ؛ لِذا فَسَوْفَ أقُصُّ عَلَيْكُمْ حِكايَةً تُبَيِّنُ فائِدَةَ العِلْمِ والاطِّلاعِ ، ومَضَرَّةَ الجَهْلِ . . . والقِصَّةُ عَنْ أخَوَيْنِ يَمْتَلِكانِ قِطْعَةَ أرْضٍ وَرِثاها عَنْ أبيهِما ، زَرَعاها بِمَحْصولِ البَطاطِسِ ، فَلَمّا حانَتِ اللَّحْظَةُ الَّتي

يَجْنِيانِ فيها ثِمارَ تَعَبِهِما ، قَرَّرا أن يَقْتَسِما الْمَحْصولَ .

« قالَ الأوَّلُ الَّذي يَجْهَلُ كُلَّ شَيْءٍ ولا يُحِبُّ القِراءَةَ والاطِّلاعَ : ‹‹ ماذا تَأْخُذُ ، يا أخي ؟ ما فَوْقَ الأرْضِ أو ما تَحْتَها ؟ ››

« دَهِشَ أخوهُ ، وقالَ ضاحِكًا : ‹‹ آخُذُ ما تَحْتَها . ››

« فَحَصَلَ عَلى الثِّمارِ كُلِّها وضاعَ جُهْدُ أخيهِ .

« ثُمَّ زَرَعا بَعْدَ ذلِكَ مَوْزًا ، فَظَنَّ الأخُ الجاهِلُ أنَّهُ إذا طَلَبَ ما طَلَبَ أخوهُ في الْمَرَّةِ السّابِقَةِ سَيَحْصُلُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ لِنَفْسِهِ ، ولِذا فَحينَ جاءَ أوانُ جَنْيِ الْمَوْزِ سَأَلَ أخاهُ : ‹‹ أ تُريدُ ما فَوْقَ الأرْضِ أمْ ما تَحْتَها ؟ ››

« ثُمَّ اسْتَدْرَكَ قائِلاً : ‹‹ عَفْوًا ، أنا سَأخْتارُ هذِهِ الْمَرَّةَ أوَّلاً . إنَّني أُريدُ ما تَحْتَ الأرْضِ فَهَلْ تُوافِقُ يا أخي؟ ››

« ضَحِكَ أخوهُ مُوافِقًا فَضاعَ جُهْدُ الأخِ الجاهِلِ لِلمَرَّةِ الثّانِيَةِ . »

٥ – الشَّمْسُ والقَمَرُ

وَقَفَ الشّابُّ الخامِسُ في خُيَلاءَ ، فَقَدْ كانَ فارِسًا شُجاعًا ، قَوِيَّ البِنْيَةِ ، جَميلَ الطَّلْعَةِ ، وقالَ :

« سَأَقُصُّ عَلَيْكِ ، يا أميرَتي ، حِكايَةً تَدْعو إلى التَّأَمُّلِ والتَّفْكيرِ :

« تَنازَعَتِ الشَّمْسُ والقَمَرُ ، فَزَعَمَ كُلٌّ مِنْهما أنَّهُ أعْظَمُ شَأْنًا وأكْثَرُ فائِدَةً لِلنّاسِ . ولَمّا اشْتَدَّ الخِلافُ بَيْنَهُما احْتَكَما إلى رَجُلٍ حَكيمٍ ، فَقالَ الرَّجُلُ : ‹‹ الشَّمْسُ أعْظَمُ في النَّهارِ والقَمَرُ أعْظَمُ في اللَّيْلِ ›› .

« رَضِيَتِ الشَّمْسُ بِحُكْمِهِ ، ولَكِنَّ القَمَرَ رَفَضَ هَذا الحُكْمَ ، وطَلَبَ إجابَةً قاطِعَةً ، فَطَلَبَ مِنْهُما الحَكيمُ أنْ يَحْتَجِبَ كُلٌّ مِنْهُما يَوْمًا كامِلاً حَتّى يَسْتَطيعَ إصْدارَ حُكْمِهِ .

« اخْتارَ القَمَرُ لَيْلَةً مِنْ لَيالي اكْتِمالِهِ بَدْرًا ، واحْتَجَبَ عَنِ النّاسِ ، فَسادَ الظَّلامُ ، وكَثُرَتِ الجَرائِمُ والسَّرِقاتُ

في تِلْكَ اللَّيلَةِ ، واشْتَدَّ خَوفُ النّاسِ وذُعْرُهُمْ. ثُمَّ كانَ اليَوْمُ التّالي فَاحْتَجَبَتِ الشَّمْسُ فَلَمْ يَذْهَبِ النّاسُ إلى أعْمالِهِمْ ، ولَمْ يَسْعَ الطَّلَبَةُ إلى مَدارِسِهِمْ ، وماتَ بَعْضُ الزَّرْعِ ، وكانَ البَرْدُ قارِسًا . ثُمَّ جاءَ اللَّيْلُ وأرادَ القَمَرُ الظُّهورَ ولَكِنَّ نورَهُ كانَ خافِتًا ، باهِتًا ، إذْ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ نورٌ . ذَهَبَ القَمَرُ مُنْزَعِجًا إلى الحَكيمِ فَأجابَهُ :

«‹‹ أيُّها القَمَرُ ، إنَّ نورَكَ لَيسَ إلا انْعِكاسًا لِضَوْءِ الشَّمْسِ ، فَمِنْها تَسْتَعيرُ نورَكَ ، وتَسْتَمِدُّ بَريقَكَ ، وعِنْدَما احْتَجَبَتِ الشَّمْسُ انْقَطَعَ عَنْكَ نورُكَ الْمُسْتَعارُ . ››

« أحَسَّ القَمَرُ بِالخَجَلِ وذَهَبَ إلى الشَّمْسِ مُعْتَذِرًا ورَضِيَ بِحُكْمِ الفَيْلَسوفِ . »

٦ – الْمُساواةُ الْمُطْلَقَةُ

وَقَفَ الشّابُّ السّادِسُ وكانَ طَبيبًا مَرْموقًا ، فَقالَ :

«كانَ يَعيشُ في قَديمِ الزَّمانِ مَلِكٌ جَبّارٌ اسْتَوْلَتْ عَلى ذِهْنِهِ فِكْرَةُ الْمُساواةِ التّامَّةِ بَيْنَ النّاسِ ، وسَيْطَرَتْ عَلى قَلْبِهِ ، وشَغَلَتْ كُلَّ وَقْتِهِ ، فَفَرَضَها عَلى مَمْلَكَتِهِ ، ووَحَّدَ بَيْنَهُمْ في كُلِّ شَيْءٍ : في الزِّيِّ والطَّعامِ والشَّرابِ والعاداتِ . وكانَ يَجِدُ سَعادَةً بالِغَةً عِنْدَما يَرى النّاسَ يَلْبَسونَ زِيًّا واحِدًا ، مِنْ لَوْنٍ واحِدٍ ، ويَأْكُلونَ هَذا الصِّنْفَ أو ذاكَ مِنَ الطَّعامِ ، ويَتَصَرَّفونَ جَميعًا في شُئونِ حَياتِهِمْ بِطَريقَةٍ واحِدَةٍ .

« حاوَلَ أَحَدُ الْحُكَماءِ أنْ يُثْبِتَ لِلْمَلِكِ مُخالَفَةَ هَذا الاتِّجاهِ لِواقِعِ الحَياةِ ، وطَبيعَةِ النّاسِ فَقالَ لَهُ ذاتَ صَباحٍ : ‹‹ يا مَوْلايَ ، لَيْسَتْ هُناكَ مُساواةٌ مُطْلَقَةٌ . إنَّ أصابِعَنا الخَمْسَ لَيْسَتْ مُتَساوِيَةَ الطُّولِ ، وإلا أصْبَحَ شَكْلُها مُضْحِكًا ، كَذَلِكَ النّاسُ فَهُناكَ الطَّويلُ والقَصيرُ ، والسَّمينُ والنَّحيفُ ، كَما أنَّ مَلامِحَهُمْ تَخْتَلِفُ . وإذا نَظَرْنا حَوْلَنا وَجَدْنا الجِبالَ لا تَتَساوى في الارْتِفاعِ ،



والأنْهارَ تَخْتَلِفُ عَرْضًا وعُمْقًا ، والحَيَواناتِ تَخْتَلِفُ في الجِنْسِ والحَجْمِ واللَّوْنِ .

« فَقاطَعَهُ الْمَلِكُ بِإصْرارٍ قائِلاً : ‹‹ ولَكِنَّني أسْتَطيعُ أنْ أفْرِضَ الْمُساواةَ الْمُطْلَقَةَ في مَمْلَكَتي ، فَعِنْدَما يكونُ النّاسُ سَواسِيَةً يَلْبَسونَ زِيًّا واحِدًا ، ويَأكُلونَ هُناك طَعامًا واحِدًا ، ويَتَصَرَّفونَ بِطَريقَةٍ واحِدَةٍ - أُحَقِّقُ لَهُمُ السَّعادَةَ فَلا يَكونُ هُناكَ غَنِيٌّ أوْ فَقيرٌ ، سَعيدٌ أو بائِسٌ ، عَظيمٌ أو حَقيرٌ . . فَالْكُلُّ سَواءٌ . ››

« وكانَ لِلْمَلِكِ حَديقَةٌ يَزْرَعُ فيها النَّباتاتِ النّادِرَةَ ، الَّتي جَمَعَها من كُلِّ مَكانٍ ، وكانَ يَعْتَزُّ بِها كَثيرًا ، فَاتَّفَقَ الحَكيمُ مَعَ البُسْتانِيِّ على أنْ يَقْلَعَ هَذِهِ النَّباتاتِ جَميعَها ، وأنْ يَسْتَبْدِلَ بِها نَوْعًا واحِدًا مِنَ النَّباتِ حَتّى تَتَساوى في الشَّكْلِ واللَّوْنِ .

« ونَزَلَ الْمَلِكُ ذاتَ صَباحٍ إلى حَديقَةِ قَصْرِهِ ، يَتَفَقَّدُ العَمَلَ فيها ، ويَنْعَمُ بِرُؤْيَةِ نَباتاتِهِ النّادِرَةِ ، فَإذا بِهِ يُفاجَأُ

باخْتِفائِها ، فَكادَ يَسْقُطُ مَغْشِيًا عَلَيْهِ ، ولَكِنَّهُ تَمالَكَ نَفْسَهُ ، وسَأَلَ البُسْتانِيَّ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ . . وقَبْلَ أَنْ يُجيبَ ، ظَهَرَ الحَكيمُ وقالَ :

‹‹ يا مَوْلايَ ، أنا الْمَسْئولُ عَنْ ذَلِكَ ، فَلَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُؤْمِنُ بِنَظَرِيَّةِ الْمُساواةِ الْمُطْلَقَةِ ، وتُريدُ تَطْبيقَها عَلى أَكْثَرِ الأَشْياءِ قُرْبًا إلى نَفْسِكَ ومَعَزَّةً إلى قَلْبِكَ . ››

«كَتَمَ الْمَلِكُ غَيْظَهُ ، وانْسَحَبَ إلى حُجْرَتِهِ ، وظَلَّ فيها حَتّى أَسْفَرَ صَباحُ اليَوْمِ التّالي ، فَخَرَجَ ونادى عَلى الوَزيرِ ، وقالَ لَهُ :

« ‹‹ مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ كُلُّ واحِدٍ حُرٌّ في أَنْ يَرْتَديَ مِنَ الثِّيابِ ما يُريدُ ، ويَأْكُلَ مِنَ الطَّعامِ ما يَشْتَهي ، ويَتَصَرَّفَ في شُئونِ حَياتِهِ كَما يُحِبُّ . ›› »

٧ – الحيلة

وَقَفَ السّابِعُ لِيَرْوِيَ قِصَّتَهُ فَقالَ :

« ‹‹ شُعَيْبٌ ›› شَخْصٌ مُتَطَفِّلٌ ، اغْتاظَ النّاسُ مِنْهُ ؛ فَهُوَ يَفْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ ، ويَذْهَبُ إلى كُلِّ مَكانٍ يُحْتَفَلُ فيهِ ، دونَ أَنْ تُوَجَّهَ إِلَيْهِ دَعْوَةٌ ، فَإذا سَمِعَ أَنَّ فُلانًا عِنْدَهُ فَرَحٌ ، أَوْ يُقيمُ وَليمَةً ، أَوْ يَذْبَحُ ذَبيحَةً ذَهَبَ إِلَيْهِ في الحالِ .

« وفي أَحَدِ الأَيّامِ سَمِعَ عَنْ وَليمَةٍ تُقامُ ، فَسَعى إِلَيْها مُسْرِعًا ، وعِنْدَما مَنَعوهُ مِنَ الدُّخولِ هَدَّدَ صاحِبَها وتَوَعَّدَهُ ، إذا لَمْ يُقَدِّمْ لَهُ طَبَقًا بِهِ أَشْهى أَنْواعِ الطَّعامِ فَسَوْفَ يَفْعَلُ مِثْلَما فَعَلَ في الْمَنْزِلِ الْمُجاوِرِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ .

« أَمَرَ صاحِبُ الْمَنْزِلِ خَدَمَهُ أَنْ يُقَدِّموا إلى ‹‹شُعَيْب›› أَكْلاً طَيِّبًا ، وشَرابًا لَذيذًا . جَلَسَ ‹‹ شُعَيْبٌ ›› لِيَأْكُلَ ويَأْكُلَ ، ولَمّا فَرَغَ مِنْ طَعامِهِ هَمَّ بِالانْصِرافِ ، لَكِنَّ رَبَّ الدّارِ اسْتَوْقَفَهُ وسَأَلَهُ :

«‹‹ أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ أَوَّلاً ماذا صَنَعْتَ في الْمَنْزِلِ الْمُجاوِرِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ؟ ››.

« أجابَهُ ‹‹ شُعَيْبٌ ›› : ‹‹ لا شَيْءَ ، لَقَدْ تَألَّمْتُ وانْصَرَفْتُ وأنا أُحِسُّ بِالجوعِ يَقْرُصُ أمْعائي . ››»

٨ – قُدْرَةُ اللَّه

أمّا الحِكايَةُ التّاسِعَةُ ، فَقَدْ حَكاها شابٌّ يافِعٌ ، واثِقٌ مِنْ نَفْسِهِ ، فَقالَ :

« إنَّ القُدْرَةَ ، يا مَوْلاتي ، لِلَّهِ وَحْدَهُ ، هُوَ الَّذي يُحْيي ويُميتُ ، مُنْبِتُ الزَّرْعِ ، و واهِبُ الخَيْرِ ، ومانِعُ الشَّرِّ . . ولَكِنَّ مَلِكَ تِلْكَ البِلادِ البَعيدَةِ يَقولُ ويُؤَكِّدُ أنَّهُ يَسْتَطيعُ ويَقْدِرُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ ، فَقالَ لَهُ وَزيرُهُ الحَكيمُ :

«‹‹ القُدْرَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، يا مَوْلايَ ، والإنْسانُ عاجِزٌ ، و أؤَكِّدُ لَكَ ، يا مَوْلايَ ، أنَّكَ غَيْرُ قادِرٍ عَلى إرْضاعِ طِفْلٍ صَغيرٍ . ››

« فَأمَرَ المَلِكُ بِإحْضارِ طِفْلٍ صَغيرٍ في الحالِ . ودَخَلَ الطِّفْلُ عَلى المَلِكِ ، وطَلَبَ مِنْهُ أنْ يُحْضِرَ لَهُ لَبَنًا طازَجًا

مِن ضَرْعِ بَقَرَةٍ لَمْ يَمْسَسْهُ أحَدٌ ، فَأمَرَ المَلِكُ بِإحْضارِ البَقَرَةِ ، وتَقْديمِ اللَّبَنِ لِلطِّفْلِ . لَكِنَّهُ لَمْ يَشْرَبِ اللَّبَنَ ، وطَلَبَ مِنَ المَلِكِ أنْ يُعيدَهُ إلى ضَرْعِ البَقَرَةِ ، فَأقَرَّ المَلِكُ بِعَجْزِهِ ، وقالَ : «‹‹ المُلْكُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . ››»

٩ – الذَّهَبُ

وَقَفَ الثّامِنُ وكانَ شابًّا ضَخْمَ الجِسْمِ ، عَريضَ المَنْكِبَيْنِ ، فَقالَ :

« قابَلَ صَديقانِ رَجُلاً حَكيمًا ، يَجْري في ذُعْرٍ شَديدٍ ، ويَقولُ : ‹‹ رَأيْتُ قاتِلَ الإنْسانِ . . رَأيْتُ قاتِلَ الإنْسانِ . ››

« فَسَألاهُ : ‹‹ مَنْ هُوَ ؟ أ هُوَ نَمِرٌ أمْ أسَدٌ جائِعٌ ؟ ››

فَقالَ الحَكيمُ : ‹‹ لا هَذا ولا ذاكَ . . لَقَدْ أخْرَجْتُهُ بِنَفْسي مِنْ باطِنِ الأرْضِ حينَ كُنْتُ أفْلَحُها . إنَّهُ كَوْمَةٌ مِنَ العُمْلاتِ الذَّهَبِيَّةِ . . الذَّهَبُ قاتِلُ الإنْسانِ . ››

« ضَحِكَ الصَّديقانِ ، وأسْرَعا في سَيْرِهِما نَحْوَ

الحَقْلِ ؛ لِكَيْ يَحْصُلا عَلى هَذا الْكَنْزِ قَبْلَ أَنْ يُذيعَ الرَّجُلُ الخَبَرَ بَيْنَ النّاسِ ، فَيُسْرِعَ غَيْرُهُما إِلَيْهِ . .

وَصَلَ الصَّديقانِ إلى الحَقْلِ ، وأَبْصَرا الكَنْزَ ، وخَطَفَ أَبْصارَهُما بَريقُ الذَّهَبِ ، وتَمَلَّكَتْهُما الدَّهْشَةُ والحَيْرَةُ مِنْ كَثْرَتِهِ ، وراحا يُفَكِّرانِ : كَيْفَ سَيَنْقُلانِه إلى مَكانٍ آمِنٍ ، حَتّى يَسْتَطيعا اقْتِسامَهُ في هُدوءٍ واطْمِئْنانٍ ؟

وبَيْنَما هُما يُفَكِّرانِ في طَريقَةٍ لِنَقْلِهِ مِنْ مَكانِهِ بِسُرْعَةٍ لَمَحا حَيَّةً رَقْطاءَ تَخْرُجُ مِنْ جُحْرِها بِجانِبِ الكَنْزِ ، يَتَلَوّى جِسْمُها ، ويَتَدَلّى لِسانُها ، وتَقْدَحُ عَيْناها بالشَّرَرِ ، وكَأَنَّها حارِسُ الكَنْزِ ، تَأْبى عَلى النّاسِ أَنْ يَقْتَحِموا مَوْضِعَهُ ، وتَحولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أَنْ يَنالوا مِنْهُ شَيْئًا . . !

بُهِتَ الصَّديقانِ وهُما يَنْظُرانِ إِلَيْها في ذُهولٍ ، وتَسَمَّرا في مَكانِهِما ، وقَدْ مَلأَ الرُّعْبُ قَلْبَيْهِما ، وسَيْطَرَ الخَوْفُ عَلى جَوارِحِهِما ، وأَصْبَحا حائِرَيْنِ مَذْعورَيْنِ ، يَنْظُرُ كُلٌّ

مِنْهُما إلى صاحِبِهِ ، ويُحَرِّكُ لِسانَهُ لِيَتَكَلَّمَ فَلا يُطاوِعُهُ ؛ فَقَدْ شَلَّ الخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ فيهِما ، واشْتَدَّ الصِّراعُ في داخِلِهِما بَيْنَ الخَوْفِ والطَّمَعِ : يَدْفَعُهُما الخَوْفُ إلى الفِرارِ مِنْ هَذِهِ الحَيَّةِ الرَّقْطاءِ نَجاةً بِنَفْسَيْهِما ، ويُلِحُّ عَلَيْهِما الطَّمَعُ في البَقاءِ والهُجومِ عَلى الحَيَّةِ وقَتْلِها والفَوْزِ بِالْكَنْزِ . .

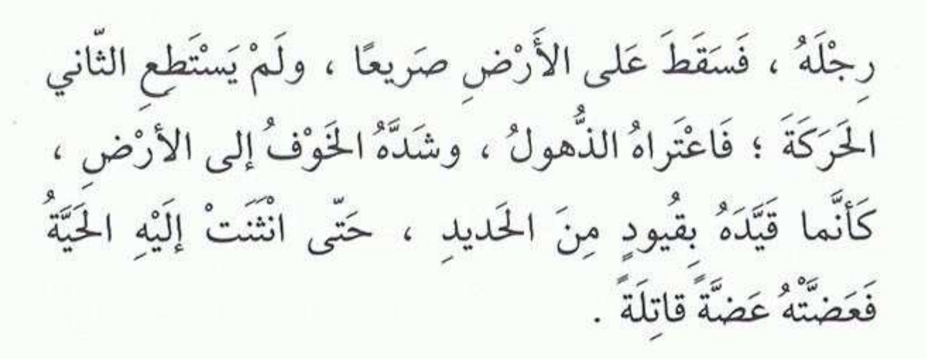
وبَعْدَ صِراعٍ نَفْسِيٍّ عَنيفٍ تَغَلَّبَتْ غَريزَةُ الطَّمَعِ وحُبِّ المالِ عَلى ما انْتابَهُما مِنْ خَوْفٍ ، وما أَصابَهُما من جَزَعٍ ، وقَرَّرا مُهاجَمَةَ الحَيَّةِ الْمُتَرَبِّصَةِ بِهِما ، كَما خُيِّلَ لَهُما . وبَحَثا عَنْ أَدَواتٍ لِلْهُجومِ عَلَيْها ، فَأَبْصَرا غَيْرَ بَعيدٍ مِنْهُما عَلاماتٍ مَنْصوبَةً في الأَرْضِ مِنَ الحَديدِ ، فَاقْتَلَعاها ، وأَمْسَكَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما بِقِطْعَةٍ ، وأَخَذَ يُشَجِّعُ كُلٌّ مِنْهُما صاحِبَهُ لِكَيْ يَبْدَأَ الهُجومَ عَلى الحَيَّةِ الرَّقْطاءِ ، ثُمَّ قَرَّرا أَنْ يُهاجِماها مَرَّةً واحِدَةً مِنْ يَمينِها وشِمالِها .

وتَقَدَّمَ الصَّديقانِ : كُلٌّ مِنْهُما مِنْ جانِبٍ ، وما إِنِ اقْتَرَبا مِنْها ، وفي نَفْسِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما خَوْفٌ وطَمَعٌ



يَتصارَعانِ، ورَغْبَةٌ في أنْ يَتقدَّمَ صاحِبُهُ نَحْوَ الحَيَّةِ قَبْلَهُ ، لَعَلَّهُ يَقْتُلُها ويُريحهُ مِنْ مُعاناتِهِ - حَتّى كانَتِ المُفاجَأةُ الَّتي شَلَّتْ حَرَكَةَ الصَّديقَيْنِ ؛ إذْ رَفَعَتْ رَأْسَها ، وشَدَّتْ جِسْمَها ، وهَجَمَتْ على أقْرَبِ الرَّجُلَيْنِ مِنْها فَنَهَشَتْ





رِجْلَهُ ، فَسَقَطَ عَلى الأَرْضِ صَريعًا ، ولَمْ يَسْتَطِعِ الثّاني الحَرَكَةَ ؛ فاعْتَراهُ الذُّهولُ ، وشَدَّهُ الخَوْفُ إلى الأَرْضِ ، كَأَنَّما قَيَّدَهُ بِقُيودٍ مِنَ الحَديدِ ، حَتّى انْثَنَتْ إلَيْهِ الحَيَّةُ فَعَضَّتْهُ عَضَّةً قاتِلَةً .

وسَقَطَ الرَّجُلانِ ، وقَدْ صَرَعَهُما الذَّهَبُ الَّذي كانا يَطْمَعانِ فيهِ !

١٠ - السَّعادَةُ

وأخيرًا جاءَ الدَّوْرُ عَلى « حَسَن » فَوَقَفَ في ثَباتٍ ، وتَوَجَّهَ إلى الأميرَةِ قائِلاً :

« إنَّ السَّعادَةَ ، يا سَيِّدَتي ، لا تُباعُ ولا تُشْتَرى ، إنَّها لَيْسَتْ في المالِ والغِنى ، ولَكِنَّها في راحَةِ البالِ ، وفي أنْ يَجِدَ الإنْسانُ مَنْ يُحِبُّهُ ، ويَقْتَسِمُ مَعَهُ الحَياةَ بِحُلْوِها ومُرِّها ، ويَعيشُ مَعَهُ الأيّامَ بِنَعيمِها وشَقائِها ، يَخافُ عَلَيْهِ إذا مَرِضَ ، ويَقْلَقُ عَلَيْهِ إذا غابَ ، ويَفْرَحُ لِفَرْحِهِ ، ويَحْزَنُ لِحُزْنِهِ .

« إنَّني سَأقُصُّ عَلَيْكُمْ قِصَّةَ شابٍّ فَقيرٍ يَعْمَلُ بِالصَّيْدِ قَرَّرَ الزَّواجَ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ غَيْرَ يَدِ أميرَةِ البِلادِ . . لَيْسَ لَدَيْهِ ما يُقَدِّمُهُ إلَيْها غَيْرَ حُبِّهِ وإخْلاصِهِ ، و وَعْدٍ

بِالسَّعادَةِ والهَناءِ . لَنْ يُقَدِّمَ لَها ذَهَبًا أوْ ماسًا أوْ نُقودًا أوْ هَدايا ثَمينَةً ، لأنَّهُ لا يَمْلُكُ سِوى حُبِّ النّاسِ وراحَةِ البالِ ، فَهَلْ أخْطَأ ، يا سَيِّدَتي ، حينَ تَجَرَّأ وطَلَبَ يَدَ الأميرَةِ؟ »

نادَتِ الأميرَةُ والِدَها المَلِكَ وقالَتْ لَهُ : « لَقَدِ اخْتَرْتُ ، يا أبي ، الشَّخْصَ الَّذي سَيُصْبِحُ زَوْجًا لي . »

ثُمَّ تَقَدَّمَتِ الأميرَةُ نَحْوَ « حَسَن » وأمْسَكَتْ بِيَدَيْهِ وقالَتْ : « لَقَدِ اخْتَرْتُ هَذا الشّابَّ ، يا أبي ، لَقَدِ اخْتَرْتُ السَّعادَةَ . »

وعاشَتْ « عينُ الحَياةِ » مَعَ « حَسَن » في سَعادَةٍ وهَناءَةٍ .

بائعُ السَّعادَةِ

كُلُّ النّاسِ يَبْتَغونَ السَّعادَةَ ، ولَكِنَّ قَليلاً مِنْهُمْ مَنْ يَجِدُها ، فَنَحْنُ مَعْشَرُ البَشَرِ نَسْتَخِفُّ بالسَّعادَةِ المُتاحَةِ لَنا ، لأنَّنا نَطْمَعُ دائِمًا في المَزيدِ ، ونَطْمَحُ إلى تَحْقيقِ سَعادَةٍ أَعْظَمَ ، ولَكِنَّنا لا نَدْري أَنَّهُ لا تُوجَدُ سَعادَةٌ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ الَّتي نَحْنُ فيها . فَلَوْ وُضِعَتْ مَصائِبُ النّاسِ في كَوْمَةٍ ، وأُتيحَ لِكُلِّ واحِدٍ أَنْ يَخْتارَ مِنْها ما يَشاءُ ، لاخْتارَ كُلُّ واحِدٍ مُصيبَتَهُ ، لأَنَّها أَهْوَنُ مِنْ مُصيبَةِ غَيْرِهِ ، ولَكِنَّ الإنْسانَ لا يَقْنَعُ أَبَدًا بِما عِنْدَهُ ، ويَتَصَوَّرُ دائِمًا أَنَّهُ أَكْثَرُ النّاسِ شَقاءً وتَعاسَةً .

عِنْدَما لاحَظَ الحَكيمُ « سُلَيْمانُ » أَنَّ أَهْلَ مَدينَتِهِ لا يَبْتَسِمونَ مُنْذُ فَتْرَةٍ ، وهُمْ عابِسونَ دائِمًا ، قَرَّرَ أَنْ يَفْتَحَ

حانوتًا لِيَبيعَ السَّعادَةَ ! ولَكِنْ هَلِ السَّعادَةُ سِلْعَةٌ تُباعُ وتُشْتَرى ؟

لِلإجابَةِ عَنْ هَذا السُّؤالِ اسْتَمِعوا إلى حِكايَةِ الحَكيمِ «سُلَيْمانَ» ، بائِعِ السَّعادَةِ مَعَ أَصْحابِ المَصائِبِ السَّبْعِ ، وكَيْفَ حَوَّلَ حَياتَهُمْ مِنْ عُسْرٍ إلى يُسْرٍ ، ومِنْ شِدَّةٍ إلى رَخاءٍ ، ومِنْ شَقاءٍ إلى راحَةٍ وهَناءٍ .

عِنْدَما فَتَحَ الحَكيمُ « سُلَيْمانُ » حانوتَهُ لِبَيْعِ السَّعادَةِ في وَسَطِ المَدينَةِ لَمْ يَتَقاطَرْ عَلَيْهِ النّاسُ ، ولَمْ يَحْضُرْ إلَيْهِ زَبونٌ واحِدٌ ، كَما كانَ يَتَصَوَّرُ ، فَكُلُّ واحِدٍ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لا حَلَّ لِمُشْكِلَتِهِ ، ولا يُريدُ الخُروجَ مِنْ دائِرَةِ الحُزْنِ الَّتي وَضَعَ نَفْسَهُ فيها ؛ لِذَلِكَ وَقَفَ « سُلَيْمانُ » ، ذاتَ مَساءٍ ، أَمامَ حانوتِهِ وأَخَذَ يَصيحُ بِأَعْلى صَوْتِهِ :

« تَقَدَّموا ، يا مَنْ تَشْعُرونَ أَنَّكُمْ تُعَساءُ ، و اشْتَروا سَعادَتَكُمْ بِلا مُقابِلٍ . . إذا أَغْلَقَ اللَّهُ بابًا فَتَحَ أَلْفًا . . .

جَرِّبوا ولَنْ تخْسِروا . »

تَقدَّمَ إلى الحانوتِ سَبْعَةُ رجالٍ ، أصْحابُ سَبْعِ مَصائِبَ ، يَعْتَقِدُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ أنَّ مُصيبَتَهُ هِيَ الكُبْرى ، وأنَّهُ أتْعَسُ النّاسِ .

جَمَعَ الحَكيمُ « سُلَيْمانُ » الرِّجالَ السَّبْعَةَ داخِلَ الحانوتِ ، وأغْلَقَ البابَ ، وبَعْدَ أنْ قَدَّمَ لَهُمُ الشّايَ طَلَبَ مِنْ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ أنْ يَقُصَّ عَلَيْهِ مُصيبَتَهُ ، وأنْ يَسْتَمِعَ الآخَرونَ في صَمْتٍ .

وبَدَأَ أوَّلُهُمْ قِصَّتَهُ قائِلاً : « إنَّ مُصيبَتي هِيَ زَوْجَتي البَلْهاءُ . »

١ – الزَّوْجَةُ البَلْهاءُ

« تَزَوَّجْتُ ، أيُّها السّادَةُ ، مِنْ بَلْهاءَ لا تَصْنَعُ شَيْئًا جَيِّدًا أبَدًا ، بَلْ تُفْسِدُ كُلَّ شَيْءٍ : تَحرِقُ الطَّعامَ ، وتَسْكُبُ اللَّبَنَ ، وتَشْوي القِطَّ على النّارِ بَدَلاً مِنَ الدَّجاجِ ، وتُلَمِّعُ

الزُّجاجَ بِالوَرْنيشِ الأسْوَدِ ، وتَتْرُكُ بابَ قَفَصِ العَصافيرِ الَّتي أُحِبُّها وأُرَبّيها مَفْتوحًا فَتَطيرُ . ولا يَنْتَهي الأمْرُ أبَدًا وكُلَّ مَرَّةٍ تَبْكي وتَعْتَذِرُ مَعَ وَعْدٍ بِأنْ تُبْدِيَ اهْتِمامًا أكْثَرَ في المَرَّةِ القادِمَةِ ، فَيَرِقُّ قَلْبي وأصْفَحُ عَنْها .

«ومُنْذُ أيّامٍ أعْطَيْتُها نُقودًا لِشِراءِ حاجِياتِ العيدِ مِنْ ثِيابٍ وطَعامٍ ، وخَرَجْتُ إلى عَمَلي . وفي غِيابي حَضَرَ بائِعُ سَجاجيدَ وقالَ لَها إنَّ اسْمَهُ ‹‹ عيد ›› ، وأنَّ النُّقودَ لَهُ ، وأعْطاها سَجّادَةً بالِيَةً ، وَجَدْتُها جالِسَةً عَلَيْها في انْتِظاري بَعْدَ أنْ ضاعَتِ النُّقودُ ، وسَرَقَ اللِّصُّ فَرْحَةَ العيدِ .

« لَقَدْ نَفِدَ صَبْري ، أيُّها السّادَةُ ، واسْوَدَّتِ الدُّنْيا في وَجْهي ، فَأنا لا أسْتَطيعُ طَلاقَها ؛ فَلا أهْلَ لَها ولا سَنَدَ ، كَما لا أسْتَطيعُ الصَّبْرَ عَلَيْها أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ : فَما العَمَلُ ؟ »

نَظَرَ الحَكيمُ إلى الرَّجُلِ وقالَ : « يا سَيِّدي ، إنَّ الصَّبْرَ خَيْرُ دَواءٍ لِكُلِّ الأدْواءِ فَإذا اسْتَطَعْتَ أنْ تَتَحَلّى بِالصَّبْرِ

طَرَقَتِ السَّعادَةُ بابَكَ ؛ فَهُوَ يَأْتيكَ بِكُلِّ ما تَبْتَغي . . اصْبِرْ عَلى زَوْجَتِكَ ، ولا تَضيقُ نَفْسُكَ بِها ؛ فَإذا كانَتْ يَنْقُصُها الوَعْيُ والحِكْمَةُ فَلا شَكَّ في أنَّ لَها مَزايا حَسَنَةً ، وصِفاتٍ طَيِّبَةً . . اكْتَشِفْ هَذِهِ المَزايا ، وابْحَثْ عَنْ هَذِهِ الصِّفاتِ في رِفْقٍ وأناةٍ ، وفي حُبٍّ ومَوَدَّةٍ . . حينَئِذٍ ، وبِالصَّبْرِ والحُبِّ تَعيشُ سَعيدًا . »

***

وَقَفَ الرَّجُلُ الثّاني وقالَ في خَجَلٍ : « لِلنّاسِ مُصيبَةٌ واحِدَةٌ ، ولَكِنْ لَدَيَّ أرْبَعُ مَصائِبَ : بَناتي الأرْبَعُ . »

٢ – أبو البَناتِ

« ماتَتْ زَوْجَتي عِنْدَ وِلادَةِ البِنْتِ الرّابِعَةِ ، وتَرَكَتْ لي أرْبَعَ مَصائِبَ ، أرْبَعَ بَناتٍ دونَ وَلَدٍ يكونُ لي السَّنَدَ والعَوْنَ ، يُعايِرُني أخي الأكْبَرُ الَّذي لَدَيْهِ ثَلاثَةٌ مِنَ البَنينِ بِأنَّني أبو البَناتِ ، وبِأنَّني لَنْ أجِدَ مَنْ يُعاوِنُني في كَسْبِ

الرِّزْقِ ، ويَخْرُجُ مَعي لِلعَمَلِ .

« مَكْتوبٌ عَلَيَّ – إذًا – أنْ أعيشَ في فَقْرٍ وضيقٍ ، فَعَلَيَّ أنْ أُطْعِمَ أرْبَعَةَ أفْواهٍ عاطِلَةٍ ، لا نَفْعَ مِنْها ولا فائِدَةَ ، قِطْعَةُ الأرْضِ الَّتي وَرِثْتُها عَنْ والِدي تحتاجُ لأيْدٍ عامِلَةٍ كَثيرَةٍ ، تَحْتاجُ لِمَنْ يَزْرَعُ ويَقْلَعُ ، ويَعْزِقُ ويَرْوي ، وأنا وَحيدٌ في هَذِهِ الدُّنْيا . . أنا أبو البَناتِ البائِسُ ، الشَّقِيُّ . »

نَظَرَ الحَكيمُ إلى الرَّجُلِ في ضيقٍ وقالَ لَهُ :

« اِحْمَدْ رَبَّكَ عَلى ما أعْطاكَ مِنْ نِعَمٍ . . فَهُناكَ مَنْ حَرَمَهُ اللَّهُ مِنَ الأوْلادِ أجْمَعينَ : البَناتَ والبَنينَ . اجْعَلْ بَناتِكَ يَعْمَلْنَ ، فَلا شَيْءَ أدْعى لِلْفَسادِ مِنَ الجُلوسِ بِلا عَمَلٍ ، وبِئْسَتْ حَياةٌ لا يُشَرِّفُها العَمَلُ ، فَالحَياةُ بِلا عَمَلٍ عِبْءٌ لا يُحْتَمَلُ ، ولا بُدَّ لِلإنْسانِ مِنْ صَنْعَةٍ يُمارِسُها مَهْما تَكُنْ قيمَتُها ، لا فَرْقَ بَيْنَ بِنْتٍ ووَلَدٍ .

« عُدْ ، أيُّها الرَّجُلُ ، إلى بَناتِكَ وتَعاوَنوا مَعًا في زِراعَةِ

وفِلاحةِ الأرْضِ ، وسَتَجِدُ السَّعادةَ بيْنَ يدَيْكَ ، و ثِقْ أنَّ البِنْتَ قدْ تكونُ أكْثرَ مَنْفعَةً وعوْنًا مِنَ الوَلَدِ . »

وَقفَ الرَّجُلُ الثّالثُ وهُوَ شَيْخٌ سَقيمُ المَنْظَرِ ، ضَئيلُ الوَجْهِ ، وقالَ في أسَفٍ ومَذَلَّةٍ : « مُصيبَتي طَمَعي وحَسَدي . »

٣ – الحَسودُ

« أنا أشْقى خَلْقِ اللَّهِ ؛ فَشُغْلي الشّاغِلُ هُوَ تَتَبُّعُ خَبايا الآخَرينَ وكَشْفُها ، والاطِّلاعُ عَلى أسْرارِهِمْ وإعْلانُها ، والضِّيقُ بِما مَنَحَهُمُ اللَّهُ مِنْ نِعَمٍ ، وما أتاهُمْ مِنْ خَيْراتٍ ؛ حَتّى أنّي أهْزَلُ إذا سَمُنَ جاري ، وأشْقى إذا فَرِحَ .

« تَأْكُلُني نارُ الغَيْرَةِ ، ولا أفْرَحُ إلا لِمَصائِبِ النّاسِ ، حاوَلْتُ كَثيرًا التَّخَلُّصَ مِنْ مُصيبَتي هَذهِ دونَ جَدْوى ، حَتّى اعْتَزَلَني النّاسُ ، وصِرْتُ وَحيدًا ، تَعيسًا ذَليلاً .

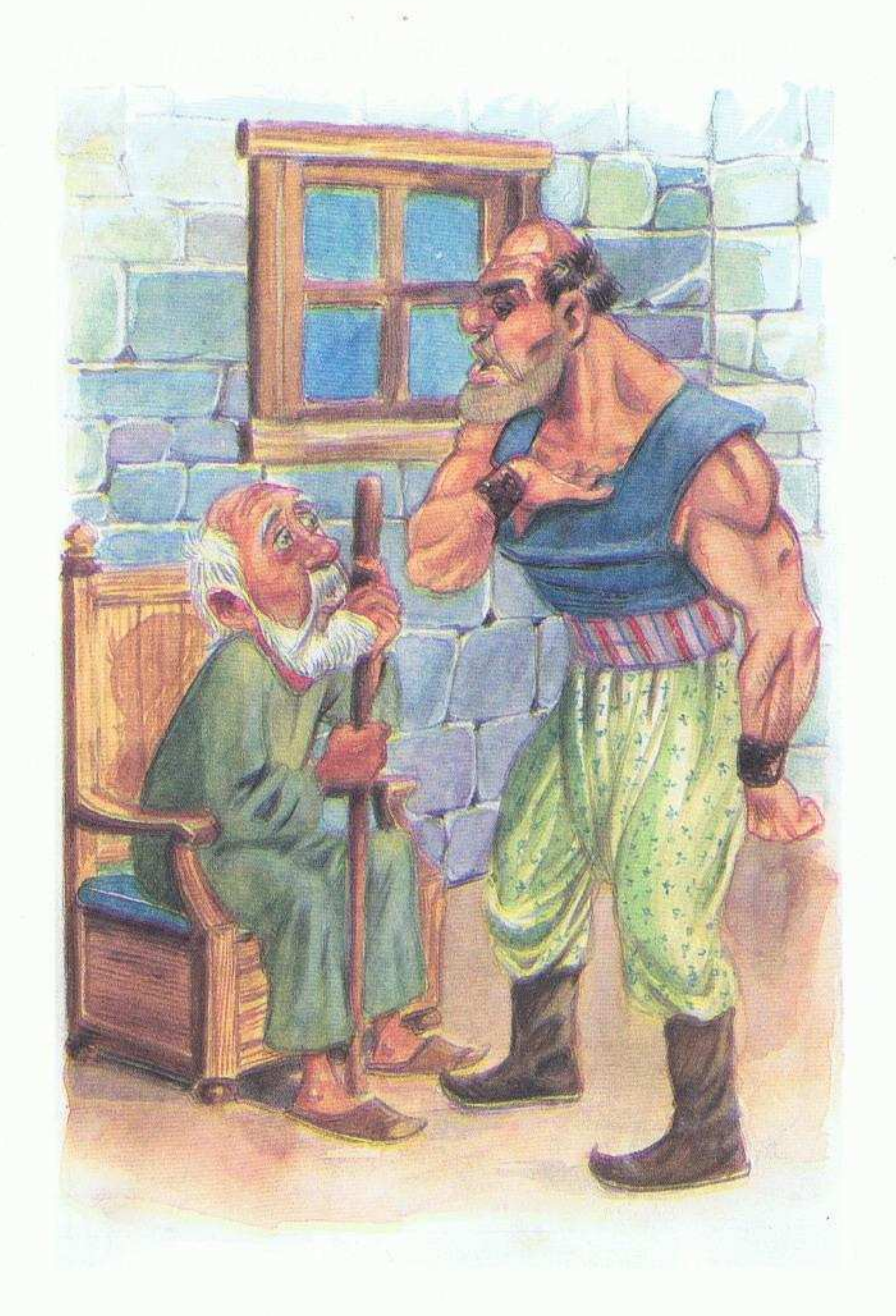
« إنَّ اللَّهَ قَدْ مَنَحَني أمْوالاً كَثيرَةً ، وأَغْدَقَ عَلَيَّ نِعَمًا

وَفيرَةً ، ولَكِنَّني لا أشْعُرُ بِالسَّعادَةِ ، ولا أتَذَوَّقُ طَعْمَها : أسْكُنُ في قَصْرٍ فَسيحٍ ، لَكِنِ ابْتَعَدَ عَنْهُ الخَدَمُ والجيرانُ ، إذا مَرِضْتُ لا يَسْألُ عَنّي أحَدٌ ، حَتّى أوْلادي وأقارِبي ابْتَعَدوا عَنّي ، فَرَكِبَني الهَمُّ ، واسْتَوْلى عَلَيَّ الغَمُّ ، وكادَ يَفْتِكُ بِيَ اليَأْسُ والحَسْرَةُ .

« إنَّكَ ، أيُّها الحَكيمُ ، تَبيعُ السَّعادَةَ ، وأنا مُسْتَعِدٌّ أنْ أدْفَعَ ما تَطْلُبُهُ كَيْ تَجْعَلَني سَعيدًا ، حَتّى لَوْ طَلَبْتَ مالي كُلَّهُ . »

أجابَهُ الحَكيمُ بَعْدَ تَفْكيرٍ : « سَعادَتُكَ في الحُبِّ مَنْبَعٌ مِنْ مَنابِعِ السَّعادَةِ . أَحِبَّ الآخَرينَ ، ساعِدْهُمْ بِمالِكَ ولا تَبْخَلْ عَلَيْهِمْ ، فَمَنْ جادَ سادَ ، ومالُ الإنْسانِ لا يُرافِقُهُ إلى قَبْرِهِ . تَقَرَّبْ مِنَ النّاسِ ، أحِبَّ لَهُمْ ما تُحِبُّهُ لِنَفْسِكَ مِنَ الخَيْرِ والسَّعادَةِ . . حينَئِذٍ سَتَتَغَيَّرُ أحْوالُكَ ويَسْتَريحُ بالُكَ ، ويَطْمَئِنُّ خاطِرُكَ ، وتُرَفْرِفُ عَلَيْكَ السَّعادَةُ . »

***



وَقَفَ الرَّجُلُ الرّابِعُ وهُوَ ضَخْمُ الجِسْمِ ، عَريضُ الْمَنْكِبَيْنِ ، أصْلَعُ الرَّأْسِ ، يَبْدو في قُوَّتِهِ كَمُصارِعٍ قَديمٍ . . وتَقَدَّمَ إلى الحَكيمِ قائِلاً : « يا سَيِّدي ، إنَّ مُصيبَتي كَبيرَةٌ لا عِلاجَ لَها ، مُصيبَتي جَهْلي . »

٤ – الجاهِلُ

إنَّني ، أيُّها السّادَةُ ، رياضِيٌّ كَبيرٌ ، وبَطَلٌ شُجاعٌ ، حُلْوُ اللِّسانِ ، خَفيفُ الظِّلِّ ، طَيِّبُ الْمَعْشَرِ ، ولَكِنَّني أفْتَقِدُ أغْلى الكُنوزِ وأعْظَمَها ، وأسْناها وأفْخَرَها : العِلْمَ .

كُنّا أخَوَيْنِ مُتَلازِمَيْنِ ، وصَديقَيْنِ حَميمَيْنِ ، لا يَكادُ الواحِدُ مِنّا يُفارِقُ صاحِبَهُ . . جَمَعَتْ بَيْنَنا – فَوقَ صِلَةِ الدَّمِ – صِفاتٌ مُشْتَرَكَةٌ كَثيرَةٌ ، ألَّفَتْ بَيْنَ قُلوبِنا ، ووَثَّقَتْ عُرى مَوَدَّتِنا . بَيْدَ أنَّ هَدَفَنا في الحَياةِ مُخْتَلِفٌ ، فَأخي قَدِ اخْتارَ الكَنْزَ الحَقيقِيَّ ، ما خَفَّ حَمْلُهُ ، وثَقُلَتْ

قيمَتُهُ ، اِخْتارَ أنْ يَتَعَلَّمَ ؛ فَكانَ تِلْميذًا نابِهًا ، كَثيرَ القِراءَةِ والْمُطالَعَةِ ، مُلِمًّا بِالْمَعارِفِ الْمُخْتَلِفَةِ ، شَغوفًا بِالعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ .

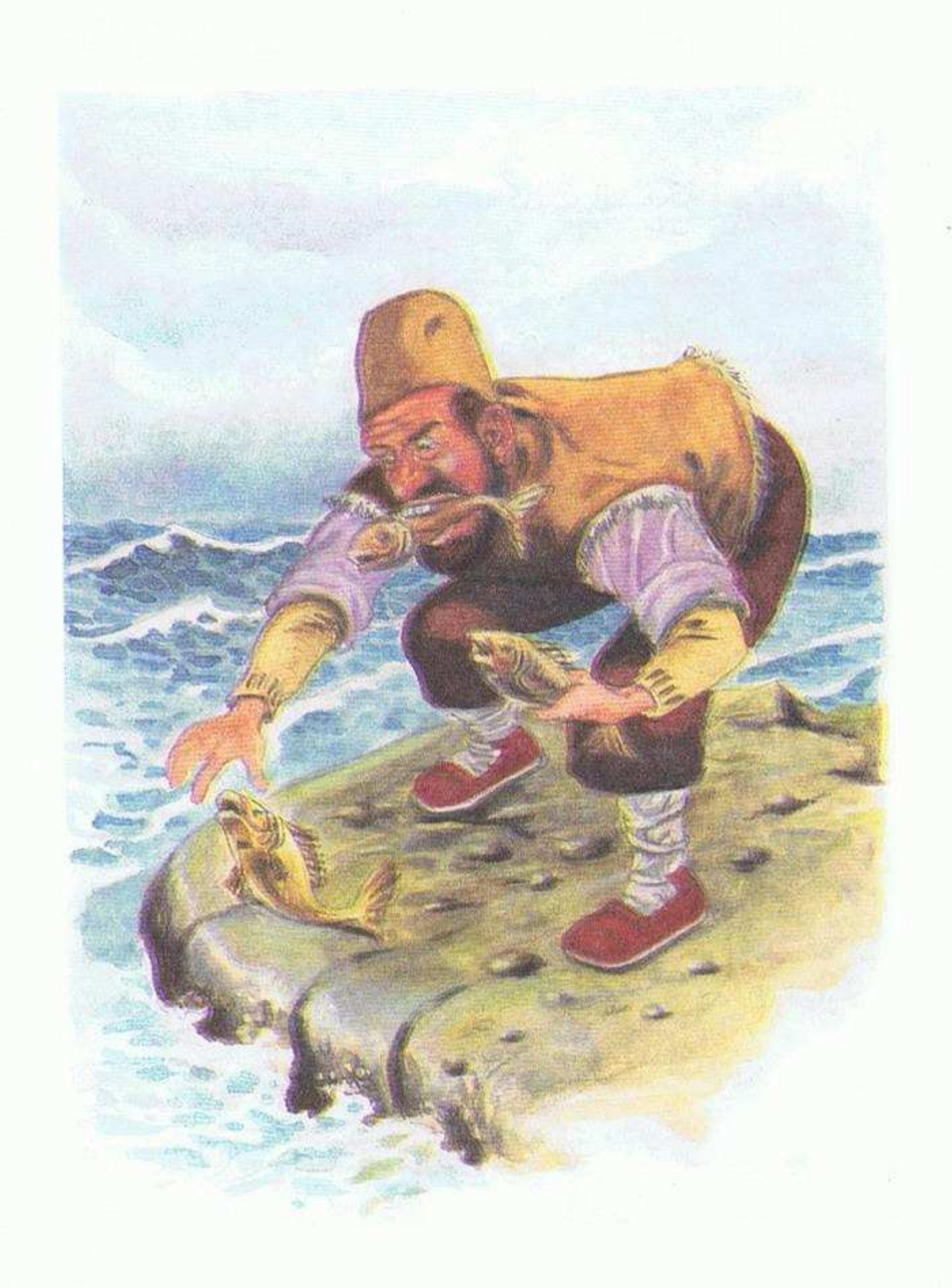
واخْتَرْتُ أنا المالَ ، ولَمْ أكُنْ أعْرِفُ أنَّ حِمْلَهُ ثَقيلٌ ، والهَمَّ بِهِ طَويلٌ ، فَابْتَعَدْتُ عَنِ الدِّراسَةِ ، وأهْمَلْتُ التَّعْليمَ ، واخْتَرْتُ الطَّريقَ السَّهْلَ ،اخْتَرْتُ جَمْعَ المالِ واسْتَخْدَمْتُ قُوَّتي الجُسْمانِيَّةَ ، وبُنْياني القَوِيَّ في الحُصولِ عَلَيْهِ . فَكُنْتُ أصارِعُ الأقْوِياءَ وأتَغَلَّبُ عَلَيْهِم مُقابِلَ المالِ ، وأصْبَحْتُ مَوْضِعَ رِهانٍ. فَهَذا يُراهِنُ بِساعَتِهِ ، وذَلِكَ بِمالِهِ ، وثالِثٌ بِسَيّارَتِهِ ، ورابِعٌ بِعَقارٍ يَمْلِكُهُ ، وكُنْتُ الفائِزَ دائِمًا . ورُحْتُ أزْهو بِقُوَّتي ، وأَفْخَرُ بِانْتِصاري عَلى الجَميعِ ، ولَكِنَّ الصِّحَّةَ لا تَدومُ ، والقُوَّةَ لا تَبْقى كَما هِيَ ؛ فَعَرَفْتُ الهَزيمَةَ ، بَعْدَ الهَزيمَةِ وتَبَعْثَرَ المالُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، و وَجَدْتُ نَفْسي بِلا عِلْمٍ ولا مالٍ ولا صاحِبٍ .

أخي الفَقيهُ العالِمُ يَزْدادُ عِلْمُهُ ولا يَنْفَدُ ، بَلْ تَزْدادُ حَصيلَتُهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ولا يَبْخَلُ بِها ، فَأصْبَحَ عَظيمَ الفائِدَةِ لِنَفْسِهِ ولِلنّاسِ مِنْ حَوْلَهُ . أمّا أنا فَلا حَوْلَ لي ولا قُوَّةَ ، سَرْعانَ ما نَفِدَ المالُ ، وضاعَتِ الصِّحَّةُ ، فَاسْتَبَدَّتْ بِيَ الحَسْرَةُ ، واسْتَوْلى عَلَيَّ النَّدَمُ ، وأحْسَسْتُ أنَّهُ لا قيمَةَ لي ، ولا فائِدَةَ تُرْجى مِنّي . »

أجابَهُ الحَكيمُ « سُلَيْمانُ » : « لَمْ يَضِعِ الوَقْتُ بَعْدُ ، ولَمْ تَفْلِتْ مِنْكَ الفُرْصَةُ كَما تَتَصَوَّرُ ، فَلَيْسَ لِلْعِلْمِ وَقْتٌ ولا سِنٌّ . عُدْ إلى الدِّراسَةِ وتَعَلَّمْ ، وانْهَلْ مِنْ شَتّى الْمَعارِفِ ، وبِالعِلْمِ والعَمَلِ سَتُحَقِّقُ السَّعادَةَ . »

***

أمّا الرَّجُلُ الخامِسُ فَكانَ يَبْدو عَلَيْهِ الحُزْنُ الشَّديدُ ، تَقَدَّمَ في بُطْءٍ وتَخاذُلٍ ، وقالَ بِصَوْتٍ واهِنٍ : « مُصيبَتي ، يا سادَةُ ، أنَّني لَمْ أعْرِفِ الكِتْمانَ فَانْفَضَحَ أمْري ، فَسِرُّكَ ،



يا سَيِّدي ، أسيرُكَ ، ولَكِنَّكَ إنْ أفْصَحْتَ عِنْهُ صِرْتَ أسيرَهُ ، ومَنْ كَتَمَ سِرَّهُ بَلَغَ مُرادَهُ ، أمّا مَنْ أذاعَهُ فَقَدْ خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وإلَيْكُمْ قِصَّتي . »

٥ – كاتِمُ السِّرِّ

« كُنْتُ ، يا سادَةَ ، صَيّادًا فَقيرًا ، لا أكادُ أجِدُ قُوتَ يَوْمي ، إلا بِصُعُوبَةٍ بالِغَةٍ . . مَرْكَبي قَديمٌ ، وشِباكي مُمَزَّقَةٌ ، وحَظّي قَليلٌ في هَذِهِ الدُّنْيا . وذاتَ يَوْمٍ في حينِ أنا جالِسٌ عَلى شاطِئِ البَحْرِ ، أُفَكِّرُ في أمْري وأشْكو حالي إلى اللَّهِ – عَزَّ و جَلَّ – انْشَقَّ البَحْرُ ، وظَهَرَتْ سَمَكَةٌ كَبيرَةٌ ، أمْسَكْتُ بها بِإحْدى يَدَيَّ ، وإذا بِسَمَكَةٍ أُخْرى أكْبَرَ مِنْها تَظْهَرُ بالقُرْبِ مِنّي فَأَمْسَكْتُ بها باليَدِ الثّانِيَةِ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ سَمَكَةٌ ثالِثَةٌ فَوَضَعْتُ الثّانِيَةَ في فَمي لأمْسِكَ بها ، ولَكِنَّها انْزَلَقَتْ وابْتَلَعْتُها . وأحْسَسْتُ بِألَمٍ شَديدٍ يُمَزِّقُ أحْشائي ، وبَدَأْتُ أتَلَوّى مِنْ شِدَّتِهِ ، ثُمَّ

خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّني أَستَمِعُ إِلى صَوْتٍ بِداخِلي يُناديني ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَيَّ .

« وعِنْدَما أَرْهَفْتُ السَّمْعَ ، كانَتِ السَّمَكَةُ تَقولُ لي :

‹‹ بِيَدي خَلاصُكَ ، افْتَحْ فَمَكَ عَنْ آخِرِهِ وسَأَقْفِزُ خارِجَهُ ، وأُنْهي أَلَمَكَ بِشَرْطِ أَنْ لا تُحاوِلَ الإِمْساكَ بي ، وإِذا الْتَزَمْتَ كِتْمانَ ذَلِكَ سَتَجِدُ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ في هَذا الْمَكانِ كيسًا بِهِ مِنَ النُّقودِ ما يَكْفيكَ في يَوْمِكَ . . . ››

« لَمْ أُصَدِّقْ سَمْعي ، وفَعَلْتُ ما طَلَبَتْهُ السَّمَكَةُ ، وتَرَكْتُها تَذْهَبُ لِحالِها رَغْمَ أَنَّهُ كانَ بِإِمْكاني الإِمْساكُ بِها ، وبَيْعِها بِثَمَنٍ كَبيرٍ ، والحُصولَ على وَجْبَةٍ شَهِيَّةٍ تَسُدُّ جُوعِي وجُوعَ أَوْلادِي . وعِنْدَ شُروقِ شَمْسِ اليَوْمِ التّالي وَجَدْتُ كيسَ النُّقودِ في الْمَكانِ الَّذي حَدَّدَتْهُ السَّمَكَةُ . وسارَتِ الأُمورُ على ما هِيَ عَلَيْهِ ، والْتَزَمَتِ السَّمَكَةُ بِوَعْدِها حَتّى كانَ ذَلِكَ اليَوْمَ الْمَشْئومَ الَّذي أَلَحَّ عَلَيَّ فيه صَديقي لِمَعْرِفَةِ

مِنْ أَيْنَ أَحْصُلُ عَلى النُّقودِ ، رَغْمَ أَنَّني لا أَعْمَلُ ، فَأَفْشَيْتُ لَهُ سِرّي ، ولَمْ أَجِدْ بَعْدَ ذَلِكَ النُّقودَ قَطُّ . »

أَجابَهُ الحَكيمُ مُبْتَسِمًا : « لا تَبْتَئِسْ ، يا صَديقي ، فَما نَحْصُلُ عَلَيْهِ بِسُهولَةٍ ويُسْرٍ ودونَ عَمَلٍ أو عَناءٍ نَفْقِدُهُ أَيْضًا بِسُهولَةٍ وسُرْعَةٍ . . أَنْتَ لَمْ تَتْعَبْ في هَذِهِ النُّقودِ فَلا تَحْزَنْ عَلى ضَياعِها ، وابْدَأْ مِنْ جَديدٍ .

« سَأُعاوِنُكَ في تَرْميمِ مَرْكَبِكَ وإِصْلاحِ شِباكِكَ ، وسَتُعاوِدُ الصَّيْدَ ، وسَتَشْعُرُ من جَديدٍ بِلَذَّةِ الحَياةِ وقيمَةِ العَمَلِ . »

***

وتَقَدَّمَ غُلامٌ صَغيرٌ لَمْ يَتَجاوَزِ العاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ فَسَأَلَهُ الحَكيمُ وعَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ : « أَ تَفْتَقِرُ إِلى السَّعادَةِ أَنْتَ أَيْضًا ؟ أَ لَدَيْكَ مُصيبَةٌ مِنَ الْمَصائِبِ وأَنْتَ في هَذِهِ السِّنِّ ؟ . »

هَزَّ الغُلامُ رَأْسَهُ بِالإيجابِ قائِلاً : « مُصيبَتي ، ياسَيِّدي، الكَذِبُ . فَمَنْ عُرِفَ بِالخِداعِ ولَوْ مَرَّةً لَمْ يُصَدِّقْهُ النّاسُ ولَوْ تَكَلَّمَ الصِّدْقَ . »

٦ – الكاذِبُ

« مُنْذُ طُفولَتي وأنا أعيشُ في الخَيالِ والأحْلام بَعيدًا عَنْ أرْضِ الواقِعِ ، أَبْني قُصورًا في الهَواءِ ، وأُشَيِّدُ عالَمًا مَسْحورًا يَفْصِلُني عَمَّنْ حَوْلي . تارَةً أُصارِعُ المارِدَ والغيلانَ ، وتارَةً أَتَفَوَّقُ عَلى السَّحَرَةِ والعَمالِقَةِ الشُّجْعانِ، مُتَخَيِّلاً نَفْسي دائِمًا بَطَلاً ، يَنْتَقِلُ مِن انتِصارٍ إلى انْتِصارٍ .

« وذاتَ يَوْمٍ ، عِنْدَما كُنْتُ جالِسًا وَحْدي ، تارِكًا لِخَيالي العَنانَ ، ناداني أبي وطَلَبَ مِنّي الذَّهابَ إلى بَيْتِ عَمّي لأَحْمِلَ لهُ بَعْضَ الطَّعامِ والنُّقودِ . فَقُلْتُ لأبي : ‹‹ولَكِنَّ بَيْتَ عَمّي يَبْعُدُ عَشْرَةَ كيلومِتْراتٍ عَنْ بَيْتِنا ،

والدُّنيا ظَلامٌ و . . . ››

« فقال لي : ‹‹ أ تَخْشى الظَّلامَ ، يا بُنَيَّ ؟››

« فَأَجَبْتُهُ : ‹‹ الظَّلامُ ؟ أنا ؟ أنا أخْشى الظَّلامَ ؟ كَيْفَ تَقولُ ذلِكَ ، يا أبي ؟ أنا لا يَهُمُّني شَيْءٌ . . . سَأَذْهَبُ فَوْرًا إلى مَنْزِلِ عَمّي . . ››

« ولَكِنَّني عِنْدَما أغْلَقْتُ بابَ الْمَنْزِلِ خَلْفي، ورَأَيْتُ الظَّلامَ يُخَيِّمُ عَلى الْمَكانِ ، ولَمْ أسْمَعْ سِوى وَقْعِ أقْدامي عَلى الطَّريقِ ، بَدَأَ الخَوْفُ يَتَسَرَّبُ إلى قَلْبي ، واسْتَبَدَّ بيَ الرُّعْبُ فَعَلَيَّ أنْ أسيرَ عَشْرَةَ كيلومِتْراتٍ في ظَلامِ اللَّيْلِ الدّامِسِ . . وَحْدي . . لا . . لَنْ أسْتَطيعَ.

« جَلَسْتُ في حَديقَةِ الْمَنْزِلِ تَحْتَ الْمِصْباحِ الَّذي وَضَعَهُ أبي لإنارَةِ الْمَدْخَلِ ، والتَهَمْتُ الطَّعامَ ، وأخْفَيْتُ النُّقودَ في حَوْضِ الزَّرْعِ ، وجَلَسْتُ شارِدًا أُفَكِّرُ . مَضَتْ ساعَةٌ مِنَ الزَّمانِ كُنْتُ قَدْ فَكَّرْتُ في حَلٍّ ، واهْتَدَيْتُ

لِفِكْرَةٍ عَبْقَرِيَّةٍ اسْتَرَحْتُ لَها ، فَمَزَّقْتُ ثِيابي ، ولَطَّخْتُ وَجْهي بِالتُّرابِ ، وبَدَأْتُ أَبْكي وأَصيحُ في فَزَع :

‹‹ أَنْقِذوني . . أَنْقِذُوني . . لَقَدْ سَرَقَني اللُّصوصُ . أَخَذوا الطَّعامَ والنُّقودَ بَعْدَ أَنْ ضَرَبوني . . خَمْسَةُ رِجالٍ وأَنا صَبِيٌّ وَحيدٌ . . أَنْقِذوني . . أَنْقِذُوني . . . ››

« جاءَ أَبي مُسْرِعًا ومِنْ وَرائِهِ أُمّي وإِخْوَتي ، يُهَدِّئونَ مِنْ رَوْعي ، ويُحاوِلونَ مُواساتي وأَنا أَنْدَمِجُ أَكْثَرَ في التَّمْثيلِ ، فَيَعْلو نَحيبي ، ويَزْدادُ صُراخي . ولَكِنَّ القِصَّةَ لَمْ تَنْتَهِ كَما أَرَدْتُ . . فَها هُوَ ذا جارُنا العُجوزُ ، الَّذي رَأى كُلَّ شَيْءٍ مِنْ نافِذَةِ مَنْزِلِهِ يَفْضَحُ أَمْري ، ويُعْلِنُ لِلْجَميعِ كَذِبي . تَوارَيْتُ أَيّامًا مِنَ الخَجَلِ لا أَجْرُؤُ عَلى الظُّهورِ ، فَكُنْتُ دائِمًا وَحْدي ، إِمّا في حُجْرَتي أو في رُكْنٍ من أَرْكانِ الحَديقَةِ .

« وذاتَ لَيْلَةٍ ، رَأَيْتُ اللُّصوصَ في حَديقَةِ جارِنا

العُجوزِ ، رَأَيْتُهُمْ هَذِهِ المَرَّةَ حَقيقَةً ، لَمْ أَكُنْ أَكْذِبُ حينَ ذَهَبْتُ إِلى أَبي أَسْتَنْجِدُ بِهِ لِيُبَلِّغَ الشُّرْطَةَ ، كُنْتُ صادِقًا ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقوني . وتَمَّتْ سَرِقَةُ مَنْزِلِ الجارِ العُجوزِ ، وكانَ عِقابي في عَدَمِ تَصْديقِ النّاسِ لي . إِنَّني لَمْ أَعُدْ أَكْذِبُ ، ولَكِنَّني حَزينٌ لأَنَّ النّاسَ لا يُصَدِّقونَ ذَلِكَ . »

قالَ لَهُ الحَكيمُ في رِقَّةٍ وحَنانٍ : « تَسْتَطيعُ ، يا بُنَيَّ ، أَنْ تَكْتَسِبَ ثِقَةَ النّاسِ مِنْ جَديدٍ ، إِذا أَقْنَعْتَهُمْ أَنَّكَ جَديرٌ بِهَذِهِ الثِّقَةِ . . اسْتَمِرَّ في صِدْقِكَ ولا تَكْذِبْ أَبَدًا وسَيَنْتَهي الأَمْرُ عِنْدَما يَعْرِفُ الجَميعُ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ صادِقًا في كُلِّ ما تَقولُ وتَفْعَلُ . »

***

نَظَرَ الجَميعُ إِلى الرَّجُلِ السّابِعِ فَقَدْ جاءَ دَوْرُهُ لِيَتَحَدَّثَ ، ولَكِنْ لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكانِهِ فَبادَرَهُ « سُلَيْمانُ » الحَكيمُ قائِلاً : « أَ لَنْ تَقُصَّ عَلَيْنا مُصيبَتَكَ ؟ جاءَ دَوْرُكَ في الكَلامِ . نَحْنُ في اشْتِياقٍ لِسَماعِ قِصَّتِكَ . »

وَقَفَ الرَّجُلُ في ضَعْفٍ وانْكِسارٍ ، وبَدَأَ حَديثَهُ قائِلاً :

« مِنَ الْمَصائِبِ يُولَدُ الرِّجالُ . ومُصيبَتي ، يا سادَةُ ، الظُّلْمُ . أنا الظّالِمُ الْمَظْلومُ في آنٍ واحِدٍ . لَقَدْ ظَلَمْتُ مَنْ لا ناصِرَ لَهُ فَظَلَمَني النّاسُ . »

٧ – الظّالِمُ الْمَظْلومُ

« العَدْلُ هُوَ إعْطاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ، وأنا أرَدْتُ أنْ أكونَ عادِلاً فَأصْبَحْتُ مَظْلومًا وظالِمًا . إلَيْكُمْ قِصَّتي مِنْ بِدايَتِها فَهِيَ شَديدَةُ الغَرابَةِ والطَّرافَةِ :

« لي مِنَ الأبْناءِ ثَلاثَةُ ذُكورٍ ، أحْسَنْتُ تَرْبِيَتَهُمْ وتَعْليمَهُمْ، ولَمْ أضِنّ عَلَيْهِمْ بِأيِّ شَيْءٍ حَتّى تَخَرَّجوا جَميعًا في كُلِّيّاتِهِمْ بِتَفَوُّقٍ ، بَعْدَ أنِ اتَّجَهَ كُلٌّ واحِدٍ مِنْهُمْ إلى الدِّراسَةِ الَّتي أحَبَّها ، ونالَ شَهادَتَها الجامِعِيَّةَ ، فَقَرَّرْتُ أنْ أُعْطِيَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَبْلَغًا مِنَ المالِ يَبْدَأُ بِهِ حَياتَهُ العَمَلِيَّةَ ساوَيْتُ بَيْنَهُمْ في ذَلِكَ ، فَلَمْ أُمَيِّزْ واحِدًا

مِنْهُمْ عَنْ أخيهِ .

« ‹‹ أحْمَدُ ›› أصْغَرُ الأبْناءِ ، وأقْرَبُهُمْ إلى نَفْسي ، وإنْ لَمْ أُصَرِّحْ أبَدًا بِحَقيقَةِ مَشاعِري تُجاهَهُ ؛ فَهُوَ طَيِّبُ القَلْبِ ، عَطوفٌ ، حُلْوُ اللِّسانِ ، حَسّاسٌ إلى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ ، مَرِحٌ تَأْنَسُ لَهُ نَفْسي ، وتَرْتاحُ لِجِوارِهِ .

« قَبْلَ أنْ أقومَ بِتَوْزيعِ المالِ عَلَيْهِمْ لاحَظْتُ مُحاوَلَةَ تَقَرُّبِ الأخَوَيْنِ مِنْ ‹‹ أحْمَدَ ›› والحَديثِ مَعَهُ هَمْسًا ، وتَبَيَّنْتُ أنَّهُما يُحاوِلانِ اسْتِغْلالَ طيبَةِ قَلْبِهِ لِلْحُصولِ عَلى مالِهِ بِحُجَّةِ القِيامِ بِمَشْروعٍ مُشْتَرَكٍ . وأيْقَنْتُ مِنْ سوءِ نِيَّتِهِما ، فَقَرَّرْتُ أنْ أُعْطِيَ كُلَّ واحِدٍ نَصيبَهُ مِنَ المالِ إلا ‹‹أحْمَدَ ›› ، بِحُجَّةِ أنَّهُ صَغيرٌ ، وأنَّني أحافِظُ لَهُ عَلَيْهِ .

ثارَ ‹‹ أحْمَدُ ›› ثَوْرَةً عارِمَةً وحاوَلَ كَثيرًا أنْ يُثْنيني عَنْ قَراري هَذا ، ويَحْصُلَ عَلى مالِهِ كَإخْوَتِهِ ، ولَكِنَّني رَفَضْتُ بِشِدَّةٍ ؛ ومِنْ ثَمَّ غَضِبَ مِنّي ، وقَرَّرَ السَّفَرَ بَعيدًا ؛ لِيَبْدَأَ حَياتَهُ بَعيدًا عَنّي وعَنْ مالي .

« و كَمْ شَقَّ عَلى نَفْسي بُعْدُهُ ، وهُوَ العَزيزُ الغالي . أرَدْتُ أنْ أكونَ عادِلاً وأنْ أُعْطِيَ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ فَأصْبَحْتُ في نَظَرِ النّاسِ ظالِمًا حَرَمَ ابنَهُ الصَّغيرَ مِنْ حَقِّهِ ونَصيبِهِ . أصْبَحْتُ ظالِمًا وأنا المَظْلومُ ، الَّذي يَتَعَذَّبُ لِفِراقِ ابْنِهِ ، ويَتوقُ لِرُؤْيَتِهِ والاطْمِئْنانِ عَلى أحْوالِهِ .

« كَمْ أشْعُرُ بِالأسى والحَسْرَةِ عَلى ما فَعَلْتُ ! و كَمْ مِنْ مَرَّةٍ حاوَلْتُ الاعْتِرافَ بِالحَقيقَةِ لأُبْرِئَ ذِمَّتي أمامَ النّاسِ وأمامَ ابْني ، ولَكِنَّني أخْشى الوَقيعَةَ بَيْنَ الإخْوَةِ ، وأُريدُ لَهُمْ أنْ يَظَلّوا دائِمًا مُتَحابِّينَ ، مُتَعاوِنينَ ! »

نَظَرَ الحَكيمُ ، بِحَنانٍ ، إلى الأبِ وقالَ لَهُ : « أنْ تَكونَ مَغْلوبًا عَلى أمْرِكَ وأنْتَ مُنْصِفٌ خَيرٌ لَكَ مِنْ أنْ تَكونَ غالِبًا وأنْتَ ظالِمٌ. لَقَدْ أنْقَذْتَ ابْنَكَ مِمّا يُدَبِّرُهُ لَهُ أخَواهُ ، وحافَظْتَ على عَلاقَةِ الحُبِّ والوُدِّ الَّتي تَرْبُطُهُمْ ؛ فَلَكَ أنْ تَفْخَرَ وتَسْعَدَ بِذَلِكَ ، والأيّامُ كَفيلَةٌ بِإصْلاحِ الأُمورِ . وسَيَعودُ ابْنُكَ سالِمًا ، غانِمًا بِإذْنِ اللَّهِ .

« والآنَ ، أيُّها السّادَةُ ، هل يُريدُ أحَدُكُمْ أنْ يَسْتَبْدِلَ بِمُصيبَتِهِ مُصيبَةَ غَيْرِهِ ؟ »

قالَ الأوَّلُ : « الزَّوْجَةُ البَلْهاءُ أفْضَلُ مِنْ داءِ الحَسَدِ . »

وقالَ الثّاني : « قَدْ تكونُ البِنْتُ أنْفَعَ مِنَ الوَلَدِ الَّذي يُريدُ أنْ يَخْدَعَ أخاهُ . »

وقالَ الثّالِثُ : « إنَّني أحْسُدُ النّاسَ ، ولَكِنَّ لَدَيَّ مِنَ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ ما يُغْنيني بَقِيَّةَ حَياتي . »

وقالَ الرّابِعُ : « قَدْ أكونُ جاهِلاً ولَكِنَّني لَسْتُ كَذّابًا ، مُخادِعًا . »

وقالَ الخامِسُ : « لَقَدْ أفْشَيْتُ سِرّي ولَكِنَّني صادِقٌ ، ونِلْتُ الكَثيرَ من العِلْمِ والمَعْرِفَةِ . »

وقالَ السّادِسُ : « قَدْ أكونُ كَذَبْتُ مَرَّةً ولَكِنَّني أصونُ السِّرَّ وأكْتُمُهُ . »

وقالَ السّابِعُ : « قَدْ أكونُ ظَلَمْتُ ابْني ولَكِنَّ ذَلِكَ خَيرٌ

مِنْ أنْ أكونَ ظالِمًا ، فَأنا أضَعُ رَأْسي عَلى وِسادَتي كُلَّ لَيْلَةٍ وضَميري مُرْتاحٌ ، وقَلْبي مُطْمَئِنٌّ . »

لَقَدْ قَرَّرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ أنْ يَحْتَفِظَ بِالْمُصيبَةِ الَّتي ابْتُلِيَ بِها ، وأنْ يَتأمَّلَ في جَوانِبِها ، وأنْ يَعْمَلَ عَلى اكتِشافِ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ ، فَلَيْسَ في الدُّنْيا شَرٌّ خالِصٌ ، ولا خَيْرٌ خالِصٌ ، كَذلِكَ لَيْسَ فيها سَعادَةٌ خالِصَةٌ ، ولا شَقاءٌ خالِصٌ ، وإنَّما مِزاجٌ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، ومِنَ السَّعادَةِ والشَّقاءِ . . والعاقِلُ مَنْ يَبْحَثُ عَنِ السَّعادَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَدْ تَكونُ في العَمَلِ والصَّبْرِ عَلَيْهِ ، وقَدْ تَكونُ في الحُبِّ والعَطاءِ ، وقَدْ تَكونُ في العَدْلِ ورَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ الْمَظْلومينَ ومُعاوَنَةِ الْمُحْتاجينَ .

إنَّ سَعادَةَ الإنْسانِ أمامَ عَيْنَيْهِ ، ولَكِنَّهُ غافِلٌ عَنْها ، لا يَشْعُرُ بِوُجودِها .

سَعيدٌ أمْ مُسْعَدٌ ؟

هَلْ تُفَضِّلُ ، يا صَديقي ، أنْ تَكونَ سَعيدًا أمْ مُسْعَدًا ، أيْ بَخيتًا مَحْظوظًا ؟ تَرَيَّثْ في الإجابَةِ عَنْ هَذا السُّؤالِ ، واسْتَمِعْ أوَّلاً إلى قِصَّةِ « سَعيد » وجارِهِ « مُسْعَد » .

كانَ « سَعيد » فَلاحًا سَعيدًا ؛ فَكُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يَرامُ ، فَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ بِزَوْجَةٍ طَيِّبَةٍ عاقِلَةٍ يَعيشُ مَعَها في سَعادَةٍ ووِئامٍ ، ولَدَيْهِ مِنَ البَنينِ والبَناتِ ثَمانِيَةٌ ، جَميعُهُمْ أذْكِياءُ مُتَفَوِّقونَ في دِراسَتِهِمْ ، مُحِبّونَ لِلْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ والنِّظامِ، مُطيعونَ لِوالِدَيْهِمْ .

ولَدَيْهِ قِطْعَةُ أرْضٍ يَقومُ بِزِراعَتِها ، ويَسْهَرُ عَلى رِعايَتِها ، فَتَجودُ بِمَحْصولٍ وَفيرٍ ، وقَدْ كانَ مَحْصولُ هَذا العامَ طَيِّبًا ، تَقَدَّمَ الكَثيرونَ لِشِرائِهِ وهُوَ يَأبى أنْ يَبيعَهُ ،

كَيْ يَحْصُلَ عَلى ثَمَنٍ عالٍ ، يُلائِمُ ما بَذَلَهُ مِنْ جُهْدٍ . وأَخيرًا تَقَدَّمَ لَهُ تاجِرٌ كبيرٌ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ ثَمَنًا مُناسِبًا اسْتَراحَتْ لَهُ نَفْسُهُ ، واطْمَأَنَّ بِهِ خاطِرُهُ ، فَقَبِلَ « سَعيد » عَرْضَهُ ، واتَّفَقَ مَعَهُ أَنْ يُسَلِّمَهُ الْمَحْصولَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ .

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي خَرَجَ « سَعيد » من بَيْتِهِ نَشيطًا ، رائِقَ البالِ ، هادِئَ النَّفْسِ ، يَشْعُرُ بِالرِّضا والطُّمَأْنينَةِ وتَمْلأُ الابْتِسامَةُ وَجْهَهُ .

وفي طَريقِهِ إلى الحَقْلِ ، كانَ يَرى كُلَّ شَيْءٍ أجْمَلَ مِنْ ذي قَبْلُ ، فَالسَّماءُ زَرْقاءُ صافِيَةٌ ، والطَّبيعَةُ رائِعَةٌ خَلابَةٌ ، وأشِعَّةُ الشَّمْسِ الدّافِئَةُ تَبْعَثُ البَهْجَةَ والسُّرورَ في نَفْسِهِ .

بَدَأَ « سَعيد » العَمَلَ في هِمَّةٍ ونَشاطٍ وعِنْدَما شَعَرَ بالتَّعَبِ ، جَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ لِيَسْتَريحَ فَغَلَبَهُ النُّعاسُ . لا يَدْري كَمْ مِنَ الوَقْتِ مَضَى ، ولَكِنْ عِنْدَما اسْتَيْقَظَ وفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَجَدَ شَيْئًا يَلْمَعُ بِجوارِهِ ، فَدَقَّقَ النَّظَرَ .. إنَّهُ

خاتَمٌ رائِعٌ ، لَهُ فَصٌّ أَزْرَقُ بِلَوْنِ السَّماءِ الصّافِيَةِ ، كَمْ هُوَ جَميلٌ !

وَضَعَ « سَعيد » الخاتَمَ في أَصْبُعِهِ ، وحَمَلَ فَأْسَهُ ، وعادَ إلى مَنْزِلِهِ . ولَكِنَّهُ ما كادَ يَقْتَرِبُ مِنَ الْمَنْزِلِ حَتّى سَمِعَ صَوْتَ شِجارٍ يَنْبَعِثُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ دارِهِ .

وعِنْدَ وُصولِهِ تَبَيَّنَ أَنَّ زَوْجَتَهُ تَتَشاجَرُ مَعَ الأَبْناءِ فَبادَرَها قائِلاً :

« ماذا بِكِ ؟ لَمْ أَسْمَعْكِ تَتَشاجَرينَ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ؟ ماذا فَعَلَ الأَوْلادُ ؟ »

أَجابَتْهُ في ضيقٍ :

« لا أَدْري ماذا حَدَثَ لَهُمُ اليَوْمَ ؛ فَقَدْ رَسَبوا جَميعًا في الامْتِحانِ ، ولا يُريدُونَ اسْتِذْكارَ دُروسِهِمْ ، ويَميلونَ إلى الفَوْضى والإهْمالِ .. انْظُرْ إلى حُجُراتِهِمْ .. مَلابِسُهُمْ مُلْقاةٌ عَلى الأَرْضِ ، والكُتُبُ مُبَعْثَرَةٌ في كُلِّ مَكانٍ ، ولا

يَمْتَثِلونَ لأوامِري . لا أعْرِفُ ماذا جَرى لَهُمْ !»

قالَ لَها سَعيد في هُدوءٍ :

« كُوني صَبورةً وعاقِلَةً كَعادَتِكِ دائِمًا . و تَدَبَّري الأَمْرَ بِهُدوءٍ ، فَلا بُدَّ أنْ . . »

قالَتْ في غَضَبٍ وثَوْرَةٍ :

« ماذا ؟ هَلْ فَقَدْتُ عَقْلي ؟ أ تَتَّهِمُني بِالجُنونِ ؟ حَسَنًا سَأتْرُكُ لَكَ الْمَنْزِلَ ، وأذْهَبُ إلى بَيْتِ أهْلي . »

قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ « سَعيد » ما يَحْدُثُ كانَتِ الزَّوْجَةُ قَدْ جَمَعَتْ مَلابِسَها ، وخَرَجَتْ مِنَ الدّارِ ، وعِنْدَما هَمَّ بِاللَّحاقِ بِها وجَدَ جَمْعًا مِنَ النّاسِ مُقْبِلينَ نَحْوَهُ ، يَصيحونَ :

« الْحَقْ ، يا ‹‹ سَعيد ›› ، أرْضُكَ غَرِقَتْ . . الْمَحْصولُ غَرِقَ . . الحَقْ . . يا ‹‹ سعيد ›› . . »

لَمْ يَدْرِ بِنَفْسِهِ ، فَقَدْ سَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

جَلَسَ « سَعيد » في دارِهِ في ظَلامِ اللَّيْلِ يُفَكِّرُ في حالِهِ : ماذا حَدَثَ حَتّى تَتَغَيَّرَ الأمورُ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ ؟ ماذا حَدَثَ لِلأوْلادِ وكانوا مَضْرِبَ الْمَثَلِ في الطّاعَةِ والنِّظامِ والتَّفَوُّقِ ؟

وزَوْجَتُهُ العاقِلَةُ ، الهادِئَةُ ماذا دَهاها ؟ وكَيْفَ غَرِقَ الْمَحْصولُ في لَمْحِ البَصَرِ ؟ كَيْفَ نَسِيَ إغْلاقَ مَصْدَرِ الرَّيِّ ؟ كَيْفَ تَتَبَدَّلُ الأمورُ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ ؟ ما الَّذي اسْتَجَدَّ حَتّى تَتَبَدَّلَ أحوالُهُ هَكَذا ؟

هَبَّ « سَعيدٌ » واقِفًا وهُوَ يَصيحُ :

« إنَّهُ الخاتَمُ ، الخاتَمُ اللَّعينُ جَلَبَ لي سوءَ الحَظِّ ، سَأتَخَلَّصُ مِنْهُ في الحالِ . »

وبِكُلِّ ما آتاهُ اللَّهُ مِنْ قُوَّةٍ طَوَّحَ بِالخاتَمِ . وحينَئِذٍ أحَسَّ « سَعيد » بِالرّاحَةِ ، وأسْلَمَ نَفْسَهُ لِلنَّوْمِ .

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، اسْتَيْقَظَ « سَعيد » عِنْدَ

شُروقِ الشَّمْسِ وكَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُ عِنْدَما وَجَدَ الخاتَمُ بِجانِبِ فِراشِهِ .

صاحَ في أسًى وضيقٍ :

« آه ، أيُّها اللّعينُ ، كَيْفَ عُدْتَ ؟ لا تُريدُ أن تُفارِقَني . . سَنَرى مَنْ سَيَنْتَصِرُ عَلى الآخَرِ . »

جَرى « سَعيد » إلى خارجِ المَنْزِلِ ، وحَفَرَ حُفْرَةً عَميقَةً ، وَضَعَ فيها الخاتَمَ ، ثُمَّ غَطّاه بِالتُّرابِ ، و وَضَعَ فَوْقَ الحُفْرَةِ حَجَرًا كَبيرًا ، وعادَ إلى المَنْزِلِ ، لِيَتَناوَلَ فَطورَهُ قَبْلَ أنْ يَذْهَبَ إلى الحَقْلِ .

دَخَلَ إلى المَنْزِلِ ، وما كادَ يَجْلِسُ حَتّى راحَ يَصيحُ في ذُهولٍ :

« غَيْرَ مَعْقولٍ ما يَحْدُثُ . . غَيْرُ مَعْقولٍ ! » لَقَدْ وَجَدَ الخاتَمَ عَلى مائِدَةِ الطَّعامِ .

كادَ « سَعيدٌ » يَفْقِدُ عَقْلَهُ : كَيْفَ يَتَخَلَّصُ مِنْ هَذا

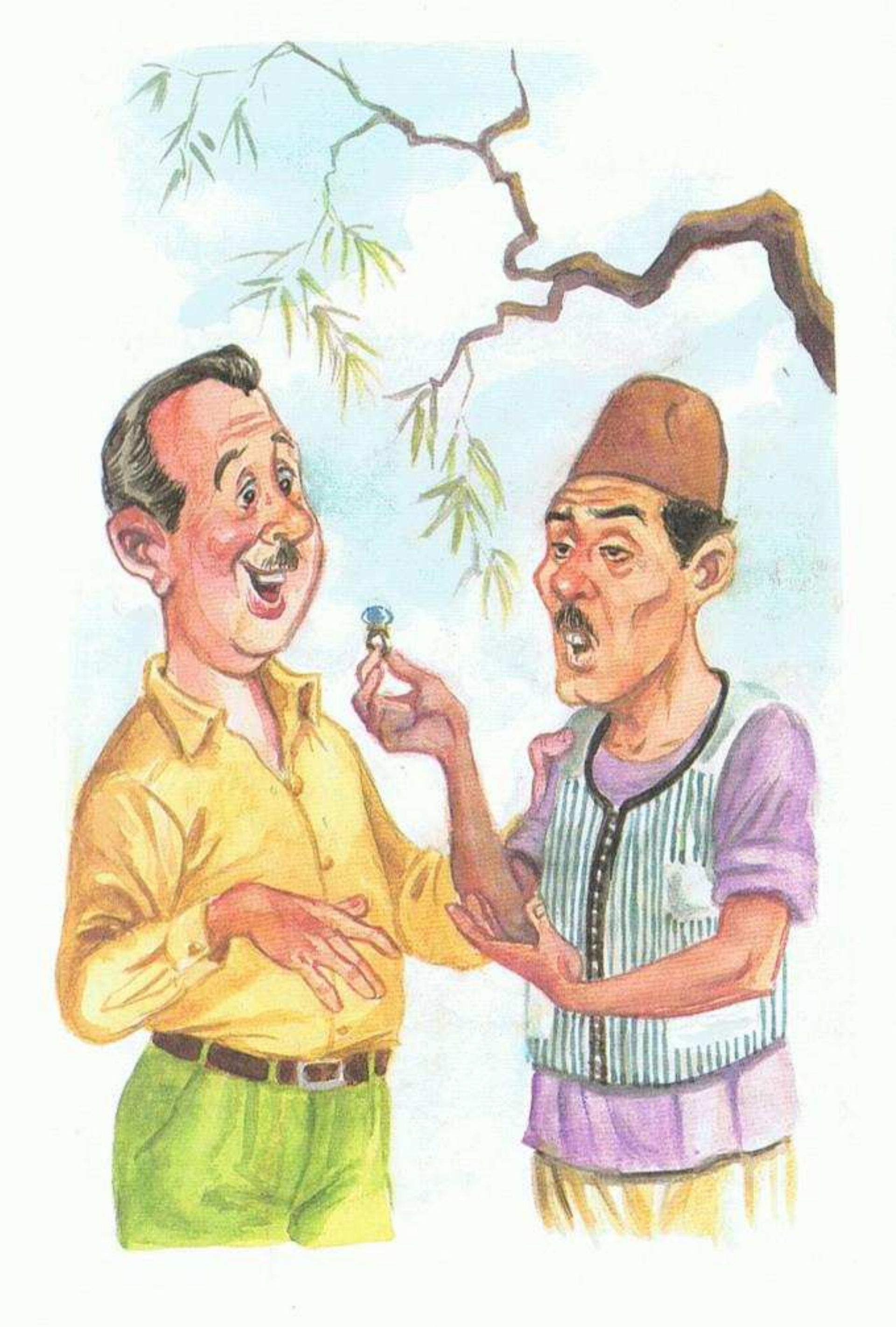
الخاتَمِ اللَّعينِ الَّذي أفْسَدَ عَلَيْهِ حَياتَهُ ؟ وبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في التَّفكيرِ سَمِعَ طَرْقًا عَلى البابِ ، فَنَهَضَ وذَهَبَ لِيَفْتَحَهُ ، فَوَجَدَ « مُسْعَدًا » جارَهُ حَزينًا بائِسًا فَسَأَلَهُ في عَجَبٍ :

«ماذا بِكَ ، يا ‹‹ مُسْعَد ›› ؟»

أجابَهُ « مُسْعَد » :

« لا أعْرِفُ ، يا أخي ، لِماذا تُعانِدُني هَذِهِ الدُّنْيا ؟ لَمْ يَعُدْ يَرْبِطُني شَيْءٌ بِهَذِهِ الحَياةِ . لَقَدْ زَهِدْتُ العَيْشَ فيها : تِجارَتي خاسِرَةٌ . أ تُصَدِّقُ أنَّني لَمْ أبِعْ شَيْئًا مُنْذُ عِدَّةِ أيّامٍ و لَمْ يَقْتَرِبْ زُبونٌ واحِدٌ مِنَ الدُّكّانِ ؟ وزَوْجَتي عاقِرٌ لا تَسْتَطيعُ أنْ تُنْجِبَ لي وَلَدًا أتَّخِذُهُ سَنَدًا لي في هَذِهِ الحَياةِ ، و . . . و . . . »

لَمْ يَعُدْ في مَقْدورِ « سعيد » أنْ يُواصِلَ الاسْتِماعَ إلى ما يَقولُهُ جارُهُ « مُسْعَد » ، أو يَعي ما يَسْمَعُهُ؛ فَقَدْ كانَتْ



هُناكَ فِكْرَةٌ تدورُ في رَأْسِهِ ، وتَشْغَلُهُ عَنِ الاسْتِماعِ والفَهْمِ . إنَّها لَفِكْرَةٌ رائِعَةٌ !

قاطَعَ « سَعيد » جارَهُ قائِلاً :

« لقد رَقَّ قَلْبي لِحالِكَ ، يا صَديقي ، ولِذَلِكَ سَأُحاوِلُ مُساعَدَتَكَ . خُذْ هَذا الخاتَمَ الثَّمينَ وبِعْهُ ، وبِثَمَنِهِ دَبِّرْ أحْوالَكَ حَتّى يُفَرِّجَها اللَّهُ . »

فَقالَ لَهُ « مُسْعَد » :

« شُكْرًا ، يا ‹‹ سَعيد ›› . . لا أعْرِفُ كَيْفَ أُوفيكَ حَقَّكَ ، فَأَنْتَ نِعْمَ الجارُ ، جَزاكَ اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ . »

غادَرَ « مُسْعَد » مَنْزِلَ « سَعيد » ومَعَهُ الخاتَمُ ، وشَعُرَ «سَعيد » بِالرّاحَةِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ ظُهورِ هَذا الخاتَمِ اللَّعينِ في حَياتِهِ .

لَقَدِ انْزاحَ عَبْءٌ كَبيرٌ عَنْ كاهِلِهِ . . الحَمْدُ لِلَّهِ . ولَكِنَّ « سَعيدًا » لَمْ يَعُدْ سَعيدًا ، ولَمْ تَتَحَسَّنْ أحْوالُهُ ، فَالدُّنْيا

هَكَذا : يَوْمٌ لكَ ويَوْمٌ عَلَيْكَ .

غَيْرَ أَنَّ « مُسْعَدًا » كانَ فِعْلاً مُسْعَدًا ، فَبَعْدَ حُصولِه عَلى الخاتَمِ تَبَدَّلَتْ حالُهُ ، فَلَمْ يُضْطَرَّ إلى بَيْعِهِ لأنَّ تِجارَتَهُ رَبِحَتْ ، وتَوافَدَ الزَّبائِنُ عَلى دُكّانِهِ حَتّى إنَّهُ اسْتَأْجَرَ غُلامًا يُساعِدهُ في تَلْبِيَةِ طَلَباتِهِمْ .

وسَمِعَ النّاسُ زَغاريدَ تَنْطَلِقُ مِنْ بَيْتِهِ فَزَوْجَتُهُ حامِلٌ ، وبَعْدَ تِسْعَةِ شُهورٍ جاءَ الوَلَدُ ، ثُمَّ جاءَتِ البِنْتُ ، وامْتَلأَ الْمَنْزِلُ بِالبَنينِ والبَناتِ ولَمْ يَتَخلَّ « مُسْعَد » أبَدًا عَنِ الخاتَمِ فَلَمْ يَجْعَلْهُ يُفارِقُ أُصْبُعَهُ ، ودَفَعَ ثَمَنَهُ لِسَعيد .

لَمْ يُدْرِكْ « سَعيد » أنَّ هَذا الخاتَمَ مِنْحَةٌ مِنَ اللَّهِ ، لا دَخْلَ لَهُ فيما حَلَّ بِهِ مِنْ نَكَباتٍ ، وما أصابَهُ مِنْ تَعاسَةٍ وشَقاءٍ ؛ فَاجْتَهَدَ في أنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ ، وأسْرَعَ يَتَخَلّى عَنْهُ ، فَقَدَّمَهُ لِجارِهِ ، لا عَنْ رَغْبَةٍ صادِقَةٍ في مُعاوَنَتِهِ ، ولَكِنَّ أَمَلاً في أنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ نِهائِيًّا .

واجْتَهَدَ « مُسْعَد » في عَمَلِهِ ، فَبَسَطَ اللَّهُ لَهُ في الرِّزْقِ ، وتَصادَفَ ذَلِكَ مَعَ وُجودِ الخاتَمِ في حَوْزَتِهِ ، فَخُيِّلَ إلَيْهِ أنَّ البَرَكَةَ حَلَّتْ بِدارِهِ ودُكّانِه بِحُلولِ الخاتَمِ في يَدِهِ .

لَمْ يُدْرِكِ الرَّجُلانِ أنَّ الحَياةَ مِزاجٌ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، مِنَ السَّعادَةِ والشَّقاءِ ، مِنَ الفَرَحِ والحُزْنِ ، مِنَ الحُبِّ والكُرْهِ . . . ولَيْسَ في الحَياةِ مَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ سَعيدًا دائِمًا ، ولا مُسْعَدًا دائِمًا !

القُوَّةُ والعَقْلُ

كانَ « مَيْمون » شابًّا في العِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، مَفْتولَ العَضَلاتِ ، قَويَّ البِنْيَةِ . لا يُعْمِلُ فِكْرَهُ في أمْرٍ مِنَ الأُمورِ ، ولا يَهْتَمُّ بِشَأْنٍ مِنْ شُئونِهِ ، وإنَّما يَتْرُكُ ذَلِكَ لِوالِدَتِهِ ، فَهِيَ تَقومُ بِتَدبيرِ كُلِّ حاجاتِهِ ، تُعِدُّ لَهُ الطَّعامَ فَإذا فَرَغَ من تَناوُلِهِ انْطَلَقَ يَتَجَوَّلُ في المَدينَةِ هُنا وهُناكَ ، ولا يعودُ إلا لِيَتَناوَلَ الوَجْبَةَ التّالِيَةَ ، فَهُوَ لا عَمَلَ لَهُ ، ولا شاغِلَ لَدَيْهِ .

كانَ عَقْلُهُ خاوِيًا وجِسْمُهُ قَوِيًّا قُوَّةً غَيْرَ مَأْلوفَةٍ ، يَهيمُ عَلى وَجْهِهِ ، يَضْرِبُ في الأرْضِ عَلى غَيْرِ هُدًى ، فَإذا لَقِيَهُ أحَدٌ في الطَّريقِ صاحَ في وَجْهِهِ غاضِبًا : « تَنَحَّ جانِبًا وإلا ضَرَبْتُكَ . »

تَعَوَّدَ النّاسُ أنْ يُفْسِحوا لَهُ الطَّريقَ ، ويُخْلوا لَهُ المَكانَ . حاوَلَتْ والِدَتُهُ كَثيرًا أنْ تَجِدَ لَهُ عَمَلاً ، ولَكِنْ دونَ فائِدَةٍ .

وذاتَ يَوْمٍ عَلِمَتْ أنَّ أحَدَ الأثْرياءِ يَطْلُبُ طاهِيًا ماهِرًا فَأخَذَتْ تُعَلِّمُ ابْنَها الطَّهْيَ ، فَقَدْ كانَتْ في ذَلِكَ ماهِرَةً . وبَعْدَ كَثيرٍ مِنَ المَشَقَّةِ والعَناءِ اسْتَطاعَتْ أن تَجْعَلَ مِنْهُ طاهِيًا جَيِّدًا ، فَحَصَلَ على العَمَلِ عِنْدَ الثَّرِيِّ ، الَّذي كانَ يَعيشُ حَياةَ بَذَخٍ وتَرَفٍ . كانَ بَعْضُ مَظاهِرِها أنْ يُقَدِّمَ إلَيْهِ طاهيهِ كُلَّ يَوْمٍ مائِدَةً عامِرَةً بما لَذَّ وطابَ من أنْواعِ الطَّعامِ بكَمِّيّاتٍ كَبيرَةٍ ، يَأْكُلُ مِنْها الجَميعُ ، ثُمَّ يُلْقي ما تَبَقّى مِنْها في القُمامَةِ لِتَتَغَذّى عَلَيْهِ الكِلابُ الضّالَّةُ ، والقِطَطُ الجائِعَةُ .

ولَكِنَّ دَوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ كَما يَقولونَ ، فَقَدْ حَدَثَ أنْ مَرَّ الثَّرِيُّ بِضائِقَةٍ مالِيَّةٍ ، فَاعْتَزَمَ أنْ يُنَظِّمَ أُمورَهُ بِطَريقَةٍ جَديدَةٍ ، ويَعْدِلَ عَنْ بَذَخِهِ ، ويُوَفِّقَ شُئونَهُ تَبَعًا لِحالِهِ

الجَديدِ ، فَاسْتَدْعى « مَيْمون » الطّاهي ، وقالَ لَهُ :

« إنَّني لا أريدُ مُنْذُ اليَوْمِ إلا صِنْفًا واحِدًا مِنَ الطَّعامِ . »

قالَ الطّاهي : « الأمْرُ لَكَ ، يا سَيِّدي » .

كانَ الثَّريُّ يَجِدُ كُلَّ يَوْمٍ على مائِدَةِ الطَّعامِ صِنْفًا واحِدًا ، ولَكِنَّ نَفَقاتِ الْمَطْبَخِ بَقِيَتْ كَما كانَتْ من قَبْلُ ، فَدَلَفَ غاضِبًا إلى الْمَطْبَخِ ، وكَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُ عِنْدَما وَجَدَ الطّاهيَ « مَيْمون » جالِسًا وأمامَهُ مائِدَةٌ عامِرَةٌ بِشَتّى ألْوانِ الطَّعامِ ، فَاسْتَبَدَّ بِهِ الغَضَبُ وصاحَ بِهِ قائِلاً : « ما هَذا ؟ أ لَمْ آمُرْكَ أنْ تَقْتَصِدَ في الطَّعامِ ؟ إنَّكَ تُقَدِّمُ لي صِنْفًا واحِدًا وأمامَكَ مائِدَةٌ عامِرَةٌ . »

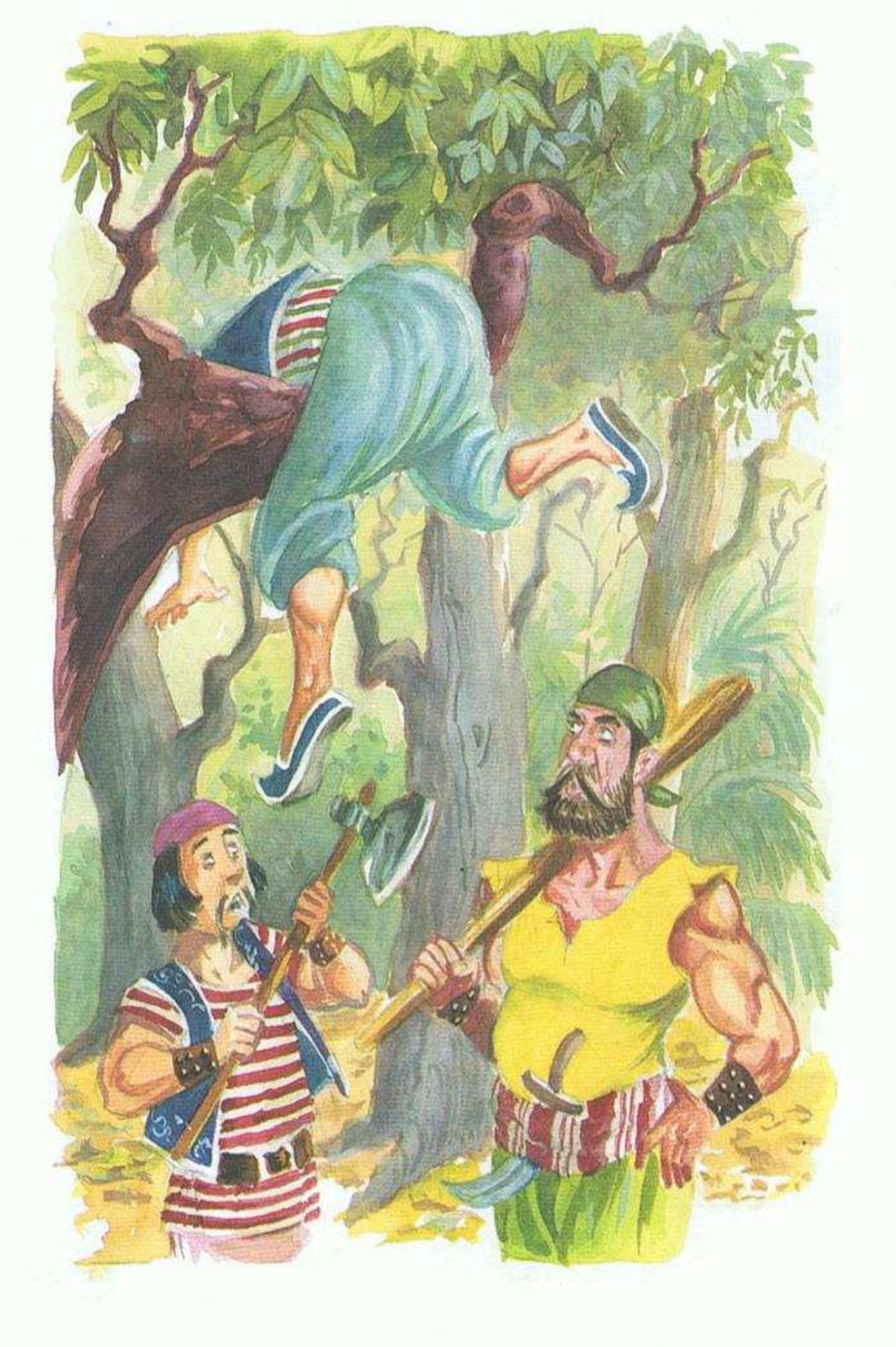
قالَ « مَيْمون » في بُرودٍ شَديدٍ : « إنَّكَ ، يا سَيِّدي ، تَمُرُّ بِأزْمَةٍ مالِيَّةٍ ، لِذَلِكَ تَأْكُلُ صِنْفًا واحِدًا مِنَ الطَّعامِ ، ولَكِنَّ الحالَ لَمْ يَتَغَيَّرْ بالنِّسْبَةِ لي ولَمْ أفْقِدْ عَمَلي فَبَقيتُ كَما كُنْتُ ، آكُلُ ما لَذَّ وطابَ من طَعامٍ ، كَما تَعَوَّدْتُ مِن قَبْلُ . »

ضاقَ صَدْرُ الرَّجُلِ بِهِ ، وصاحَ فيهِ : « انْصَرِفْ من هُنا ، أيُّها الشَّقِيُّ ، أنْتَ فَقَدْتَ عَمَلَكَ من هَذِهِ اللَّحْظَةِ . »

خَرَجَ « مَيْمون » من مَنْزِلِ الثَّريِّ غَيْرَ عابِئٍ بِما حَدَثَ ، فَهُوَ لا يَهْتَمُّ بِشَيْءٍ ولَمْ يَحْزَنْ لِفَقْدِهِ العَمَلَ ، ولَكِنَّ والِدَتَهُ هِيَ الَّتي حَزِنَتْ حُزْنًا شَديدًا . وأصابَها اليَأْسُ من إصْلاحِ شَأْنِ وَلَدِها .

وكانَ لـ « مَيْمون » جارٌ يَعْمَلُ بالتِّجارَةِ ، وكانَتْ تِجارَتُهُ واسِعَةً ، أرادَ أنْ يَخْرُجَ يَوْمًا لِتَصْريفِ بَعْضِ تِجارَتِهِ ، وكانَ عَلَيْهِ أنْ يَسْلُكَ في طَريقِهِ غابَةً تَتَّخِذُها وَكْرًا عِصابَةٌ مِنَ اللُّصوصِ ، ذاعَ صيتُهُمْ في المِنْطَقَةِ لِخُطورَتِهِمْ ، فَفَكَّرَ التّاجِرُ في أنْ يرافِقَهُ مَنْ يُعينُهُ عَلى ذَلِكَ مُقابِلَ مَبْلَغٍ كَبيرٍ مِنَ المالِ .

ولَكِنَّ النّاسَ كانُوا يَخْشَوْنَ عَلى حَياتِهِمْ مِنَ اللُّصوصِ ، ويَرْفُضونَ القِيامَ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ ، والتّاجِرِ يَرْفَعُ



كُلَّ يَوْمٍ قيمَةَ الأجْرِ ، ولَكِنَّهُ لا يَجدُ - بالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ - أحَدًا لِيُرافِقَهُ في هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الصَّعْبَةِ . ولَمّا سَمِعَتْ « أمُّ مَيْمونٍ » بذَلِكَ طَلَبَتْ مِنِ ابْنِها الْمَعْروفِ بِقُوَّتِهِ أنْ يُرافِقَ التّاجِرَ مُقابِلَ ثَلاثُمائَةِ جُنَيْهٍ .

وافَقَ التّاجِرُ عَلى الفَوْرِ ، وأعْطى « مَيْمون » فَوَضَعَها في خِرْقَةٍ مِنَ القُماشِ ، شَدَّها حَوْلَ وَسَطِهِ ورَحَلَ مَعَ التّاجِرِ الَّذي كانَ يَحْمِلُ خَمْسَةَ آلافٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ ، وبِضاعَةً جَيِّدَةً غالِيَةً .

وبَلَغَ الرَّجُلانِ الغابَةَ الخَطِرَةَ ، وما هِيَ إلا لَحَظاتٍ حَتّى لَمَحا العِصابَةَ قادِمَةً مِنْ بَعيدٍ ، فَأمَرَ التّاجِرُ « مَيْمون » أنْ يَخْتَبِئَ بَيْنَ الأشْجارِ ، وبادَرَ هُوَ بالاخْتِفاءِ في مَكانٍ قَريبٍ .

ولَكِنَّ « مَيْمون » اخْتَبأَ بِطَريقَةٍ مُضْحِكَةٍ فجَعَلَ رَأْسَهُ بَيْنَ فُروعِ الشَّجَرَةِ وتَرَكَ قَدَمَيْهِ تَتَدَلَّيانِ مِنْها . وكانَ زَعيمُ العِصابَةِ يَتَقَدَّمُ أفْرادَها فَلَمْ يَرَ ساقَيْ « مَيْمون » جَيِّدًا ، وظَنَّهُما فَرْعَيْنِ يَتَدَلَّيانِ بَيْنَ الشَّجَرَةِ ، فَنَبَّهَ رِجالَهُ لِيَأْخُذوا

حَذَرَهُمْ فَلا يَصْطَدِمونَ بِهِما في ظَلامِ اللَّيْلِ .

وَلكِنَّ « مَيْمون » صاحَ غاضِبًا : « أيُّها الْمُغَفَّلُ ، كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلى وَصْفِ ساقَيَّ بِأنَّهُما فَرْعانِ مِن فُروعِ الأشْجارِ؟ إنَّهُما خَيْرٌ مِن ساقَيْكَ ، أيُّها الأبْلَهُ . »

اسْتَبَدَّتِ الدَّهْشَةُ بِزَعيمِ العِصابَةِ وأمْسَكَ بِـ « مَيْمون » قائلاً : « مَنْ أنْتَ ؟ كَيْفَ أتَيْتَ إلى هُنا ؟ كَمْ مَعَكَ مِنَ النُّقودِ ؟ »

أجابَهُ « مَيْمون » مُشيرًا إلى مَوْضِعِ النُّقودِ : « هَلْ تَحْسَبُني فَقيرًا أوْ مُتَسَوِّلاً ؟ إنَّ مَعي ثَلاثَمائَةَ جُنَيْهٍ هُنا حَوْلَ وَسَطي . »

أمْسَكَ بِهِ اللُّصوصُ وكَشَفوا عن ثِيابِهِ و وَجَدوا النُّقودَ في الخِرْقَةِ مِمّا زادَ دَهْشَتَهُمْ ، فَقالَ زَعيمُهُمْ : « يا رِجالُ ، إنَّ هَذِهِ الجُنَيْهاتِ لا شَكَّ في أنَّها مُزَيَّفَةٌ ، وإلا لَما أرْشَدَنا إلى مَكانِها ، فَهَلْ يُعْقَلُ أنْ يُفْضِيَ أحَدٌ بِمَكانِ نُقودِهِ بِهَذِهِ السُّهولَةِ ؟ »

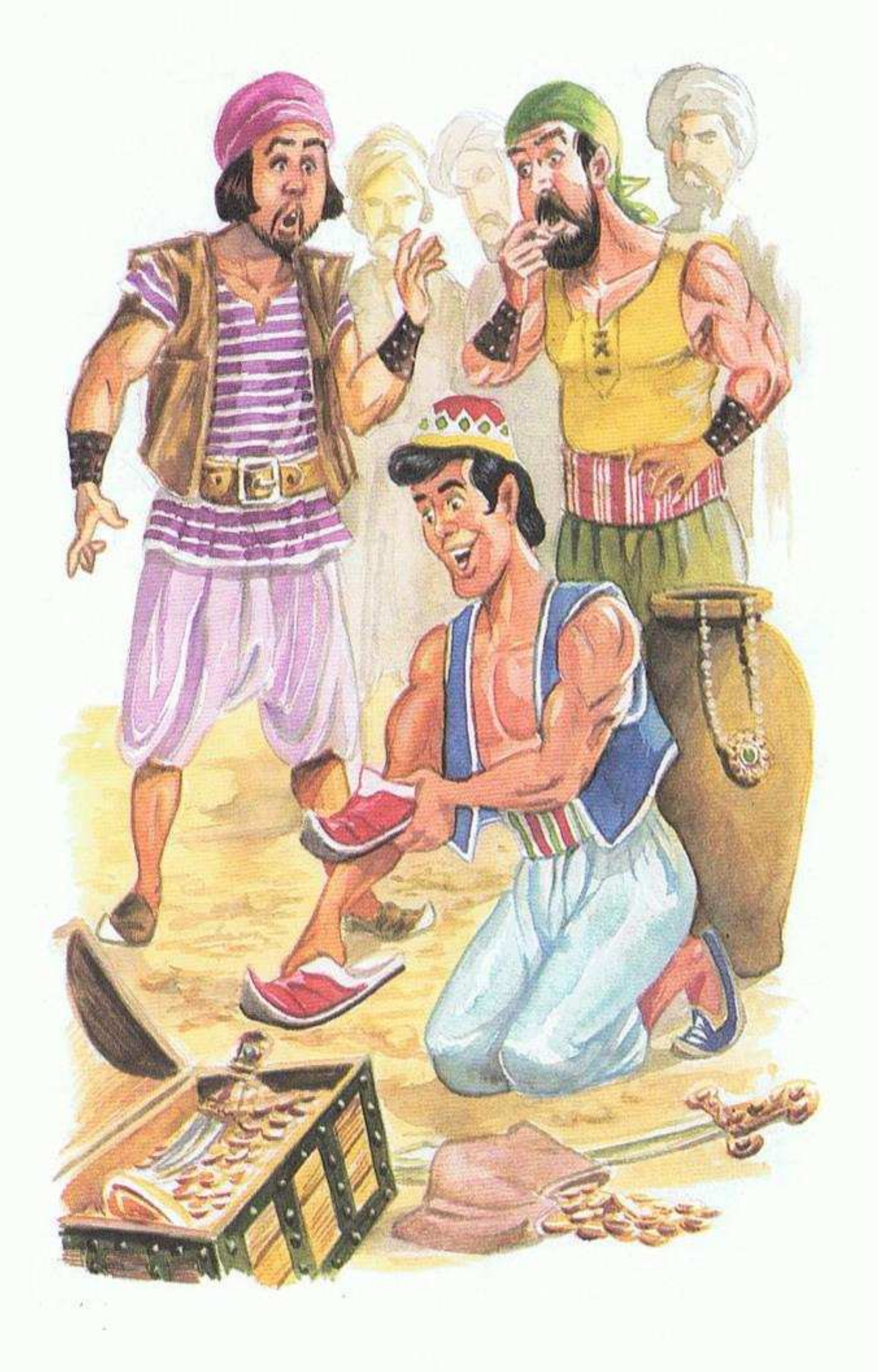
اسْتَبَدَّ الغَضَبُ بِـ « مَيْمون » وصاحَ : « إنَّني لَسْتُ مُزَيِّفًا ولا لِصًّا مِثْلُكَ ، فَهَذِهِ الجُنَيْهاتُ حَصَلْتُ عَلَيْها مِنْ تاجِرٍ أمينٍ ثَرِيٍّ ، وإنْ كُنْتَ لا تُصَدِّقُني ، وتُريدُ أنْ تَسْتَوْثِقَ مِنْ صِدْقِ كَلامي فَهَذا التّاجِرُ قَريبٌ مِنّا . إنَّهُ في هَذا الْمَكانِ . »

وأشارَ « مَيْمون » إلى الْمَكانِ الَّذي يَخْتَبِئُ فيهِ التّاجِرُ فَأمْسَكَ بِهِ اللُّصوصُ واسْتَوْلوا عَلى ما مَعَهُ مِنْ بِضاعَةٍ ونُقودٍ وتَرَكوهُ لِشَأْنِهِ .

أرادَ « مَيْمون » العَوْدَةَ مَعَ التّاجِرِ ولَكِنَّهُ رَفَضَ بِشِدَّةٍ صائِحًا في غَضَبٍ : « هَذا فِراقٌ بَيْني وبَيْنَكَ ، أيُّها الأبْلَهُ ، لا أُريدُ أنْ أرى وَجْهَكَ مَرَّةً أُخْرى . »

طَلَبَ « مَيْمون » مِنَ اللُّصوصِ أنْ يَظَلَّ مَعَهُمْ ، فَوافَقَ الزَّعيمُ لِقُوَّةِ بُنْيانِهِ وشِدَّتِهِ .

وفي الْمَغارَةِ ، حَيْثُ يَعيشُ اللُّصوصُ ويُخَبِّئونَ ما سَرَقوهُ ونَهَبوهُ وَجَدَ « مَيْمون » مَرْكوبًا أحْمَرَ ، وأعْجَبَهُ



كَثيرًا ، فَطَلَبَ مِنَ الزَّعيمِ أنْ يُعْطِيَهُ إيّاهُ . وافَقَ الزَّعيمُ وهُوَ في دَهْشَةٍ شَديدَةٍ مِنْ أمْرِ ذَلِكَ ، يَتْرُكُ كُلَّ ما في الْمَغارَةِ مِنْ مالٍ وجَواهِرَ وحُلِيٍّ ويَطْلُبُ الحُصولَ عَلى هَذا الْمَرْكوبِ الأحْمَرِ.

كَمْ كانَتْ سَعادَةُ « مَيْمونٍ » بالْمَرْكوبِ ، فَكانَ لا يَخْلَعُهُ حَتّى أثْناءِ النَّوْمِ ، ولا يُفارِقُهُ أبَدًا !

وفي أوَّلِ عَمَلِيَّةِ سَطْوٍ قامَ بِها مَعَ اللُّصوصِ فَضَحَ الْمَرْكوبُ أمْرَهُمْ ، وتَمَّ القَبْضُ عَلَيْهِمْ جَميعًا ، فَقَدِ اخْتَبَأَ « مَيْمون » وراءَ سِتارٍ عِنْدَما سَمِعَ صَوْتَ خُطُواتٍ قادِمَةٍ ، ولَمْ يَنْتَبِهْ إلى أنَّ الْمَرْكوبَ الأحْمَرَ يَظْهَرُ جَلِيًّا واضِحًا مِنْ تَحْتِ السِّتارِ.

وبَعْدَ أن قَضى « مَيْمون » مُدَّةَ العُقوبَةِ ، خَرَجَ مِنَ الْحَبْسِ ، وعادَ إلى والِدَتِهِ مُفَضِّلاً أنْ يَبْقى بِلا عَمَلٍ ، هائِمًا عَلى وَجْهِهِ ، لا يَعودُ إلى الْمَنْزِلِ إلا في مَوْعِدِ الْوَجَباتِ كَما كانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ.

وذاتَ صَباحٍ وهُوَ سائِرٌ على غَيْرِ هُدًى وَجَدَ عُشًّا لِغُرابٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ ، وبِهِ غِرْبانٌ صَغيرَةٌ حَديثَةُ العَهْدِ بِهَذِهِ الدُّنْيا .

فَتَسَلَّقَ « مَيْمون » الشَّجَرَةَ ، وأمْسَكَ بِالغُرابِ الَّذي أخَذَ يَصيحُ : « ماذا سَتَفْعَلُ بي ؟ لَنْ أنْفَعَكَ في شَيْءٍ ، ولَكِنْ إذا تَرَكْتَني لأَوْلادي سَأكونُ عَوْنًا لَكَ وسَنَدًا . ألا تُصَدِّقُني ؟ اسْتَمِعْ إلَيَّ جَيِّدًا : هُناكَ عَلى هَذِهِ الشَّجَرَةِ القَريبَةِ عِشُّ عُصْفورٍ ، لَمْ أرَ مَثيلاً لِجَمالِهِ ، فَلِكُلِّ ريشَةٍ لَوْنٌ : ريشَةٌ حَمْراءُ ، وأُخْرى صَفْراءُ ، وثالِثَةٌ زَرْقاءُ ، ورابِعَةٌ خَضْراءُ . وصَوْتُهُ جَميلٌ لَمْ أسْمَعْ مِثْلَهُ مُطْلَقًا . سَأذْهَبُ إلَيْهِ وأُشاكِسُهُ ثُمَّ أطيرُ وأخْتَبِئُ خَلْفَكَ ، فَيأتي وَرائي وتَسْتَطيعُ الإمْساكَ بِهِ . »

قالَ « مَيْمون » : « حَسَنًا ، سَأَتْرُكُكَ الآنَ . »

طارَ الغُرابُ إلى الشَّجَرَةِ ، حَيْثُ عُشُّ العُصْفورِ ونَقَرَهُ بِمِنْقارِهِ ، ثُمَّ طارَ فَطارَ العُصْفورُ خَلْفَهُ ، واخْتَبَأَ الغُرابُ خَلْفَ « مَيْمون » فَلَمّا أرادَ العُصْفورُ الوُصولَ إلَيْهِ لِيَنْتَقِمَ

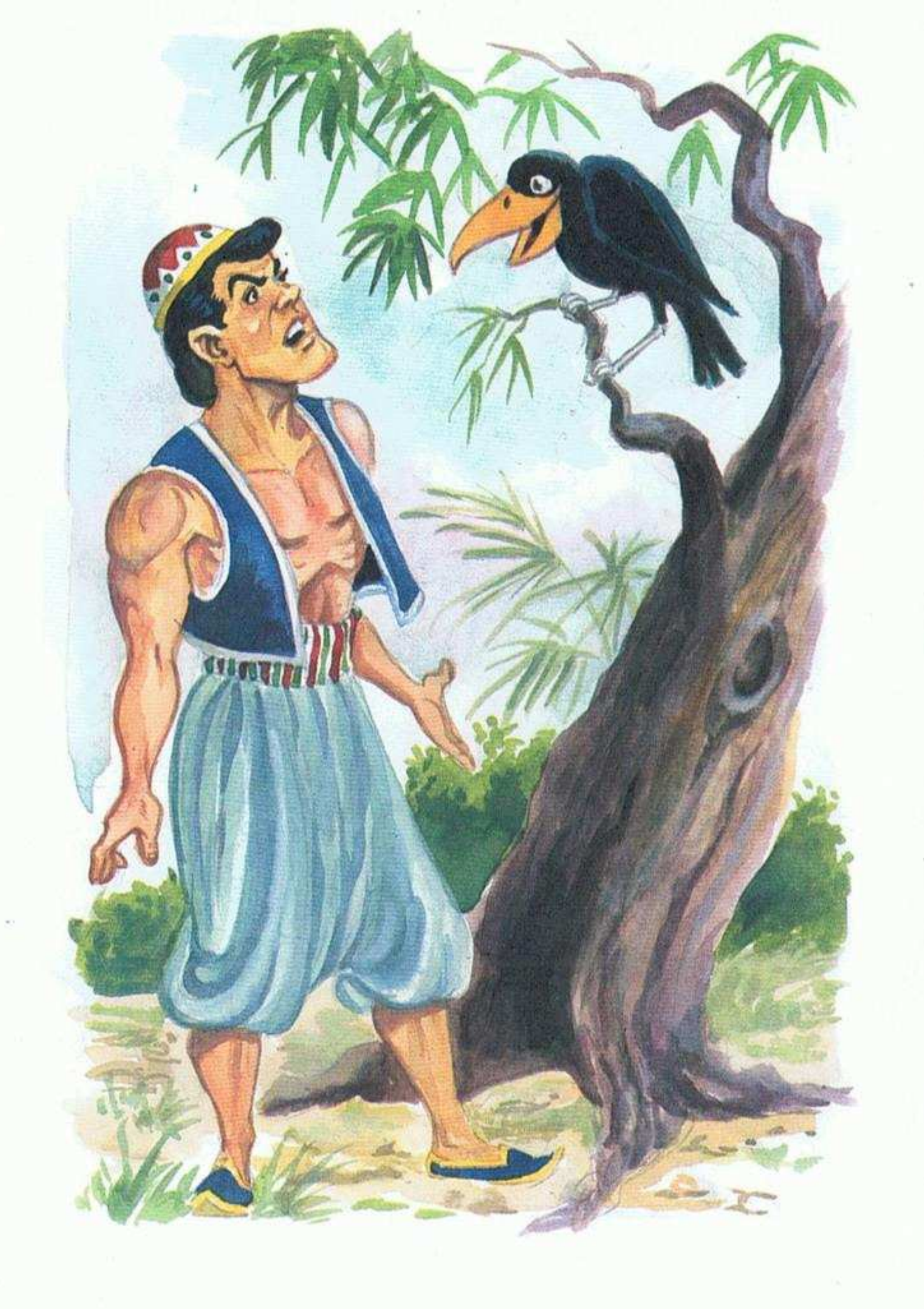
مِنْهُ ، أمْسَكَ بِهِ « مَيْمون » .

عادَ « مَيْمون » إلى الْمَنْزِلِ ومَعَهُ العُصْفورُ الجَميلُ ، وعِنْدَما رَأتْهُ والِدَتُهُ قالَتْ لَهُ : « هَذا العُصْفورُ لا يَليقُ إلا بِمَلِكِ البِلادِ اذْهَبْ فَوْرًا لإهْدائِهِ لَهُ . »

وفي الطَّريقِ إلى قَصْرِ الْمَلِكِ ، قابَلَ « مَيْمون » الْوَزيرَ الَّذي أُعْجِبَ كَثيرًا بِالعُصْفورِ ، وأرادَ أنْ يَأْخُذَهُ مُقابِلَ مالٍ وَفيرٍ ، فَرَفَضَ « مَيْمون » قائِلاً : « هَذا العُصْفورُ لا يَليقُ إلا بِمَلِكِ البِلادِ . »

فَرِحَ الْمَلِكُ كَثيرًا بِالعُصْفورِ ، وأمَرَ أنْ يُغْدِقوا الأمْوالَ عَلى « مَيْمون » ، ويُعْطوهُ أكْثَرَ مِمّا يُريدُ .

عِنْدَما وَصَلَ الوَزيرُ إلى القَصْرِ ، ورَأى العُصْفورَ ، اسْتَشاطَ غَضَبًا ، وأرادَ أنْ يَنْتَقِمَ مِنْ « مَيْمون » ، فَقالَ لِلْمَلِكِ : « هَذا العُصْفورُ جَميلٌ ، ولا يَليقُ بِهِ إلا قَفَصٌ مِنَ العاجِ . »



عَجِبَ الْمَلِكُ وقالَ : « قَفَصٌ مِنَ العاجِ ؟ مَنْ سَيَأْتي بِهِ . »

أجابَ الوَزيرُ الْماكِرُ : « مَنْ أحْضَرَ العُصْفورَ يَسْتَطيعُ أنْ يُحْضِرَ القَفَصَ . »

اسْتَدْعى الْمَلِكُ « مَيْمون » ، وطَلَبَ مِنْهُ قَفَصًا مِنَ العاجِ ، وإلا قَطَعَ رَقَبَتَهُ .

ذَهَبَ « مَيْمون » إلى الغُرابِ وأخَذَ يَصيحُ : « أيُّها الغُرابُ الْمَلْعونُ . اظْهَرْ ، أيُّها الشَّقِيُّ . »

أسْرَعَ الغُرابُ يَقولُ : « لِمَ تَلْعَنُني ، ماذا فَعَلْتُ ؟ »

قالَ « مَيْمون » : « يُريدُ الْمَلِكُ قَفَصًا مِنَ العاجِ لِلْعُصْفورِ . »

سَألَهُ الغُرابُ : « هَلْ رَأى أحَدٌ العُصْفورَ قَبْلَ الْمَلِكِ ؟ »

أجابَ « مَيْمون » : « نَعَمْ ، الوَزيرُ . وكانَ يُريدُ أن يَشْتَرِيَهُ . »

قالَ الغُرابُ : « إذًا ، هَذِهِ مَكيدَةٌ مِنْهُ . اسْتَمِعَ إِلَيَّ جَيِّدًا. اذْهَبْ إلى الْمَلِكِ وقُلْ لَهُ ، إنَّ ما طَلَبَهُ لَيْسَ أمْرًا يَسيرًا ، وأنَّ عَلَيْهِ أنْ يُدَبِّرَ لَكَ أرْبَعينَ بَغْلاً مُحَمَّلينَ بِسِلالٍ مِنَ الْمِلْحِ ، وأرْبَعينَ جُنْدِيًّا ، عَلى أنْ يَتَوَلّى الوَزيرُ جَميعَ التَّكاليفِ ، ولا يُساهِمُ أحَدٌ مَعَهُ بِدِرْهَمٍ واحِدٍ ، وإلا فَلَنْ تَسْتَطيعَ الحُصولَ عَلى القَفَصِ العاجِيِّ . »

فَعَلَ « مَيْمون » ما أشارَ بِهِ الغُرابُ واضْطَرَّ الوَزيرُ لِتَدْبيرِ ما طَلَبَ .

رَحَلَ « مَيْمون » ومَعَهُ البِغالُ والْمِلْحُ والعَبيدُ إلى بِلادِ الأفْيالِ ، وفَعَلَ ما نَصَحه بِهِ الْغُرابُ ، فَوَضَعَ الْمِلْحَ على الأرْضِ وفَرَشَهُ جَيِّدًا حَتّى بَدا بَريقَهُ مَعَ أشِعَّةِ الشَّمْسِ السّاطِعَةِ وكَأنَّهُ بِرْكَةُ ماءٍ ، ولَمّا أرادَتِ الأفْيالُ أنْ تَشْرَبَ سَقَطَتْ نافِقَةً ، فَأَخَذَ الجُنودُ الأنْيابَ العاجِيَّةَ ، وصَنَعوا مِنْها القَفَصَ ، وعادَ « مَيْمون » مُنْتَصِرًا إلى البِلادِ .

فَرِحَ الْمَلِكُ كَثيرًا بِالقَفَصِ ، ولَكِنَّ الوَزير اسْتَشاطَ

غَضَبًا ، وازْدادَ سَخَطًا عَلى « مَيْمون » ، فَقالَ لِلْمَلِكِ : « إنَّكَ لَمَلِكٌ عَظيمٌ تَمْتَلِكُ أفْخَمَ القُصورِ ، ولَدَيْكَ عُصْفورٌ لا مَثيلَ لَهُ ، يَعيشُ في قَفَصٍ مِنَ العاجِ لَمْ أرَ مِثْلَهُ ، ولَكِنْ يَنْقُصُكَ ، يا مَوْلايَ ، شَيْءٌ واحِدٌ . »

سَأَلَ الْمَلِكُ في دَهْشَةٍ : « ما هُوَ ؟ تَكَلَّمْ ، يا وزيرُ . »

أجابَ الْوَزيرُ في خُبْثٍ ودَهاءٍ : « يَنْقُصُكَ فَرَسُ النَّهْرِ الذَّهَبِيُّ ، يا مَوْلايَ ، لِتُزَيِّنَ بِهِ حَديقَةَ قَصْرِكَ . »

سَأَلَ الْمَلِكُ في حَيْرَةٍ وعَجَبٍ : « ولَكِنْ مَنْ يَأْتي بِهَذا الفَرَسِ الذَّهَبِيِّ ؟ »

أجابَ الوَزيرُ الماكِرُ الحاقِدُ : « مَنْ أحْضَرَ لَكَ العُصْفورَ والقَفَصَ يَسْتَطيعُ إحْضارَ الْفَرَسِ . »

اسْتَدْعى الْمَلِكُ « مَيْمون » وطَلَبَ مِنْهُ الفَرَسَ الذَّهَبِيَّ وإلا قَطَعَ رَقَبَتَهُ؛ فَذَهَبَ « مَيْمون » إلى الغُرابِ وهُوَ يَسُبُّ ويَلْعَنُ ، فَسَأَلَهُ الغُرابُ : « ماذا بِكَ ؟ ماذا حَدَثَ؟ »



وأخْبَرَهُ « مَيْمونٌ » بِطَلَبِ الْمَلِكِ ، فَأدْرَكَ الغُرابُ أنَّها مَكيدَةٌ أُخْرى مِنَ الوَزيرِ ، فَقالَ : « قُلْ لِلْمَلِكِ إنَّ الأمْرَ لَيْسَ هَيِّنًا ، وإنَّ الفَرَسَ الذَّهَبِيَّ يَلْزَمُهُ سَرْجٌ ذَهَبِيٌّ مُرَصَّعٌ بِالماسِ والأحْجارِ الثَّمينَةِ الغالِيَةِ ، وعَلى الوَزيرِ أنْ يُدبِّرَهُ مِنْ مالِهِ الخاصِّ لأنَّهُ إذا شارَكَهُ غَيْرُهُ في إعْدادِهِ فَلَنْ يَسْتَطيعَ إحْضارَ الْفَرَسِ . »

امتَثَلَ الوَزيرُ مُرْغَمًا لأمْرِ الْمَلِكِ ، وأنْفَقَ كارِهًا مُعْظَمَ مالِهِ في صُنْعِ السَّرْجِ . و عِنْدَما رآهُ « مَيْمون » قالَ وَفْقًا لِنَصيحَةِ الغُرابِ : « هَذا السَّرْجُ لا يَليقُ بِالْفَرَسِ الذَّهَبِيِّ . »

عِنْدَئِذٍ ، اضْطَرَّ الوَزيرُ لِبَيْعِ جُزْءٍ مِنْ أمْلاكِهِ وضِياعِهِ وقُصورِهِ. وفي كُلِّ مَرَّةٍ يَصْنَعُ سَرْجًا جَديدًا لا يُوافِقُ عَلَيْهِ « مَيْمون » ، حَتّى صَنَعَ سَرْجًا يُعَدُّ أعْجوبَةَ الأعاجيبِ ، لَمْ تَرَ العَيْنُ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ ، ولَكِنَّهُ كانَ قَدْ أفْلَسَ ، وفَقَدَ كُلَّ ما يَمْلِكُ .

فَعَلَ « مَيْمون » ما أشارَ بِهِ الغُرابُ ، فَدَفَنَ نَفْسَهُ في الرِّمالِ بِالقُرْبِ مِنَ النَّهْرِ واضِعًا السَّرْجَ فَوْقَ رَأْسِهِ . وعِنْدَما رَأى فَرَسُ النَّهْرِ الذَّهَبِيُّ السَّرْجَ ، وذَهَبَ إلى مَكانِهِ فَوْقَ رَأْسِ « مَيْمون »، أمْسَكَ بِهِ « مَيْمون » ، وأرادَ الفَرَسُ أنْ يَتَّجِهَ بِهِ إلى النَّهْرِ ولَكِنَّ « مَيْمون » كانَ قَوِيًّا شَديدًا ، فَاسْتَطاعَ أنْ يُوَجِّهَهُ إلى الطَّريقِ ، وذَهَبَ بِهِ إلى قَصْرِ الْمَلِكِ.

فَرِحَ الْمَلِكُ كَثيرًا ، وأجْزَلَ العَطاءَ لـ « مَيْمون » ، الَّذي عادَ مُحَمَّلاً بِالمالِ والهَدايا ، وشَيَّدَ مَنْزِلاً جَديدًا لَهُ ولِوالِدَتِهِ ، وجَعَلَ فيهِ مَتْجَرًا يَبيعُ فيهِ ويَشْتَري مُخْتَلِفَ البَضائِعِ . ومَرَّتِ الأيّامُ والشُّهورُ ، ثُمَّ فُوجِئَ النّاسُ بِوَفاةِ الْمَلِكِ واخْتَلَفوا فيما بَيْنَهُمْ عَلى مَنْ يَخْلُفُهُ . اشْتَدَّ الخِلافُ والنِّزاعُ بَيْنَ النّاسِ ؛ فَكُلُّ واحِدٍ يَرى نَفْسَهُ جَديرًا بِكُرْسِيِّ العَرْشِ ، ثُمَّ رَأَوا أخيرًا أنْ يَحْتَكِموا إلى أحَدِ شُيوخِهِمُ الْمَعْروفِ بِالحِكْمَةِ وحَصافَةِ الرَّأْيِ ، فَأَخَذَ

يُفَكِّرُ ، ثُمَّ قالَ: « أطْلِقوا عُصْفورَ الْمَلِكِ ، والشَّخْصُ الَّذي يَقِفُ العُصْفورُ فَوْقَ رَأْسِهِ يُصْبِحُ مَلِكَ البِلادِ . »

وفي اليَوْمِ الْمُحَدَّدِ اجْتَمَعَ الرّاغِبونَ في الْمُلْكِ ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَأْمُلُ في اعْتِلاءِ عَرْشِ البِلادِ، ودُقَّتِ الطُّبولُ وفَتَحوا بابَ القَفَصِ العاجِيِّ ، فَطارَ العُصْفورُ ، واسْتَقَرَّ عَلى رَأْسِ « مَيْمون » . وحينَئِذٍ أصْبَحَ « مَيْمون » مَلِكَ البِلادِ ، وتَزَوَّجَ الأميرَةَ بِنْتَ الْمَلِكِ ، فَكانَتْ عَقْلَهُ الْمُدَبِّرَ ، تُساعِدُهُ في إدارَةِ شُئونِ الْمَمْلَكَةِ ، فَاكْتَمَلَتْ قُوَّتُهُ البَدَنِيَّةُ بِقُدْرَتِها العَقْلِيَّةِ ، فَأدارَ البِلادَ إدارَةً حازِمَةً واعِيَةً : تُنْصِفُ الْمَظْلومَ ، وتَضْرِبُ عَلى يَدِ الظّالِمِ ، وتُعينُ الضَّعيفَ ، وتُساعِدُ الفَقيرَ ، وتُوَفِّرُ لَهُ العَمَلَ الَّذي يَكْسِبُ مِنْهُ رِزْقَهُ، فَلا يَحْتاجُ لأحَدٍ . و شاعَ الأمْنُ في رُبوعِ البِلادِ ، واطْمَأَنَّ النّاسُ فَسارَعوا إلى العَمَلِ والإنْتاجِ ، فَكَثُرَتِ الخَيْراتُ ، وعَمَّ الرَّخاءُ ، وعاشَ النّاسُ جَميعًا في سَعادَةٍ وهَناءَةٍ ، وفي مَوَدَّةٍ وإخاءٍ .

القَصْرُ المَهْجورُ

كانَتْ « نَسْمَة » فَتاةً في الثّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، لَمْ يَهَبْها اللهُ جَمالَ الشَّكْلِ فَحَسْبُ ، ولَكِنَّهُ مَنَحَها أيْضًا جَمالَ الرّوحِ ، والذَّكاءَ والطّيبَةَ وحُبَّ النّاسِ . وكانَتْ « نَسْمَة » وَحيدَةَ والِدَيْها ، تَسْكُنُ بالقُرْبِ مِنَ قَصْرٍ مَهْجورٍ ، وتَسْمَعُ الحِكاياتِ الغَريبَةَ الَّتي تُرْوى عَنْهُ .

كانَتْ « نَسْمَة » تَخْلو كَثيرًا إلى نَفْسِها ، وتَتْرُكُ العِنانَ لِخَيالِها ، فَتَنْتَقِلُ إلى عالَمٍ مَسْحورٍ ، تَرى نَفْسَها أميرَةً ، أوْ راعِيَةً ، أوْ ساحِرَةً . وتَجِدُ في هَذِهِ الأحْلامِ مُتْعَةً بالِغَةً حَتّى إنَّها قَدْ تَقْضي يَوْمَها ، تُفَكِّرُ في هَذا العالَمِ الخَيالِيِّ ، ولا تَشْعُرُ بِمُرورِ الوَقْتِ حَتّى يُنَبِّهَها أحَدُ والِدَيْها ، فَتَسْتَيْقِظَ ، وتَعودَ إلى دُنْيا الواقِعِ ، نادِمَةً عَلى ذَلِكَ أشَدَّ النَّدَمِ . وكَثيرًا ما كانَتْ تُفَكِّرُ في القَصْرِ المَهْجورِ ، وتَحْلُمُ بِدُخولِهِ والتَّجَوُّلِ فيهِ .

وفي ذاتِ يَوْمٍ ، اسْتَغْرَقَتْ « نَسْمَة » في تَخَيُّلاتِها ، حَتّى إنَّها لَمْ تَعُدْ واعِيَةً : أ نائِمَةٌ هِيَ أمْ مُسْتَيْقِظَةٌ ؟ ورَأَتْ -وهِيَ في هَذِهِ الحالِ - حُلْمًا غَريبًا ، لا تَعْرِفُ إنْ كانَ واقِعًا حَقيقِيًّا أَوْ خَيالاً . رَأَتْ نَفْسَها جالِسَةً في حَديقَةِ القَصْرِ المَهْجورِ وَحيدَةً ، وإذا بِها تَسْمَعُ صَوْتًا ، يَدْعوها لِدُخولِ المَنْزِلِ : فَتَصْعَدُ دَرَجاتِ السُّلَّمِ في ذُهولٍ ، وتَجِدُ نَفْسَها أمامَ ثَلاثِ غُرَفٍ مُغْلَقَةِ الأبْوابِ . والصَّوْتُ يَدْعوها لِلدُّخولِ ، وهِيَ مَذْعورَةٌ خائِفَةٌ ، فَيُكَرِّرُ الصَّوْتُ دَعْوَتَهُ مَرّاتٍ ومَرّاتٍ ، ويُغْريها بِفَتْحِها بأنَّ بِداخِلِ هَذِهِ الغُرَفِ الثَّلاثِ كَنْزًا كَبيرًا ، إذا حَصَلَتْ عَلَيْهِ - عاشَتْ سَعيدَةً بَقِيَّةَ حَياتِها . ولَكِنَّها ما زالَتْ خائِفَةً ، قَلِقَةً ، تَرْتَجِفُ وتَسْمَعُ دَقّاتِ قَلْبِها الَّذي يَكادُ يَنْخَلِعُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ .

اسْتَيْقَظَتْ « نَسْمَة » مِنْ حُلْمِها عَلى صَوْتِ أُمِّها يَدْعوها لِتَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ . وظَلَّتْ تُفَكِّرُ طَوالَ اللَّيْلِ في هَذا القَصْرِ المَهْجورِ ، وفي هَذا الحُلْمِ العَجيبِ الغَريبِ ، وتَشْحَذُ ذِهْنَها في أمْرِهِ : هَلْ كانَ حُلْمًا أمْ

واقِعًا حَقيقيًّا ؟ هَلْ سَمِعَتْ – فِعْلاً – الصَّوْتَ الَّذي كانَ يُناديها ؟ كُلُّ ذَلِكَ يُخَيِّلُ لَها أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَحْلُمُ ، ولَكِنَّ وُجودَها في فِراشِها يُؤَكِّدُ أَنها كانَتْ حالِمَةً ، فَهَذا هُوَ سُلوكُها . لَقَدْ بَدَأَتْ تَخْشى عَلى نَفْسِها مِنْ أَحْلامِ اليَقَظَةِ هَذِهِ الَّتي تَسْتَبِدُّ بِأَمْرِها .

أَقْبَلَ الصَّباحُ و « نَسْمَة » جالِسَةٌ في فِراشِها ، مُسْتَغْرِقَةٌ في تَفْكيرِها ، ويَسْتَحْوِذُ عَلَيْها أَمْرُ هَذا الكَنْزِ فَتُزَيِّنُ لَها نَفْسُها الذَّهابَ إِلى القَصْرِ المَهْجورِ ؛ لَعَلَّها تَصِلُ إِلى غايَتِها ، وتُحَقِّقُ رَغْبَتَها .

تَكَرَّرَ الحُلْمُ مَرّاتٍ ، وفي كُلِّ مَرَّةٍ يَزْدادُ إِصْرارُ « نَسْمَة » عَلى الذَّهابِ إِلى القَصْرِ المَهْجورِ . وأَخيرًا بَعْدَ تَرَدُّدٍ ، قَرَّرَتْ أَنْ تَدْخُلَ القَصْرَ لَيْلاً . . ولَكِنْ : هَلْ تُخْبِرُ والِدَيْها بِما عَزَمَتْ عَلَيْهِ ؟ إِنَّهُما سَيَرْفُضانِ هَذِهِ الرَّغْبَةَ رَفْضًا قاطِعًا ، بَلْ قَدْ يَظُنّانِ أَنَّ شُرودَها الكَثيرَ قَدْ أَثَّرَ عَلى عَقْلِها . وبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّها قَدْ تَعَوَّدَتْ مُصارَحَتَهُما بِكُلِّ شُئونِها ، إِلا أَنَّها سَتُخْفي عَنْهُما هَذا الأَمْرَ ، ولَعَلَّهُما يَغْفِرانِ لَها ذَلِكَ عِنْدَ عَوْدَتِها بِالكَنْزِ .

نامَ جَميعُ مَنْ بِالمَنْزِلِ ، فَأَخَذَتْ « نَسْمَة » مِصْباحًا يُضيءُ لَها الطَّريقَ ، وتَسَلَّلَتْ إِلى الخارِجِ ، وكُلَّما اقْتَرَبَتْ مِنَ القَصْرِ أَسْرَعَتْ دَقّاتُ قَلْبِها ، وارْتَجَفَتْ أَوْصالُها . ها هِيَ ذي أَمامَ القَصْرِ ، ولَكِنَّها خائِفَةٌ . لا تَسْتَطيعُ الدُّخولَ . . سَتَعودُ أَدْراجَها إِلى مَنْزِلِها ، وبَدَأَتْ تَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ وهِيَ في فِراشِها .

تَغَيَّرَتْ أَحْوالُ « نَسْمَة » ، وزادَ شُرودُها ، وكَثُرَ عُزوفُها عَنِ الطَّعامِ ، ولَمْ تَعُدْ تَسْتَطيعُ التَّرْكيزَ في القِراءَةِ ، واسْتَغْرَقَتْ تَمامًا في أَحْلامِها . ولِكَيْ تَضَعَ حَدًّا لِقَلَقِها وحَيْرَتِها ، قَرَّرَتْ أَنْ تَذْهَبَ إِلى القَصْرِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ عَلى الفِراشِ رِسالَةً لِوالِدَيْها ، تُخْبِرُهُما بِمَكانِها ، فَيَسْتَطيعانِ العُثورَ عَلَيْها وإِنْقاذَها لَوْ وَقَعَتْ في وَرْطَةٍ ، أَوْ حَدَثَ لَها مَكْروهٌ .

وأَمامَ القَصْرِ ، وَقَفَتْ « نَسْمَة » تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ وهِيَ تَرْتَعِدُ ، وبَدا لَها مُضيئًا ، حَتّى إِنَّها أَطْفَأَتْ مِصْباحَها لِشُعورِها أَنَّها لَيْسَتْ في حاجَةٍ إِلَيْهِ ، كَيْ تَتَبَيَّنَ طَريقَها . إِنَّ الخَوْفَ يَدْفَعُها إِلى العَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ لَكِنَّها في هَذِهِ المَرَّةِ

سَتَتَغَلَّبُ عَلى خَوْفِها ، وتَخَيَّلَتْ نَفْسَها وقَدْ كَشَفَتْ سِرَّ هَذا القَصْرِ وكانَتْ أوَّلَ مَنْ دَخَلَهُ ، وحَصَلَتْ عَلى الكَنْزِ .

وفي لَحْظَةٍ حاسِمَةٍ دَفَعَتِ « نَسْمَة » البَوّابَةَ الحَديدِيَّةَ ، ودَلَفَتْ إلى الحَديقَةِ . صَعِدَتْ دَرَجاتِ السُّلَّمِ ، وإذا بالبابِ يُفْتَحُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ ، وإذا الصَّوْتُ نَفْسُهُ يَدْعوها لِلدُّخولِ . و لِدَهْشَتِها أحَسَّتْ « نَسْمَة » بِالأمانِ ، ولَمْ تَعُدْ خائِفَةً .

وَجَدَتْ « نَسْمَة » نَفْسَها في بَهْوٍ صَغيرٍ بِهِ ثَلاثَةُ أبْوابٍ مُغْلَقَةٍ . لا بُدَّ أنَّ الكَنْزَ بداخِلِ إحْدى الحُجُراتِ الثَّلاث . فَتَحَتْ بابَ الحُجْرَةِ الأُولى فَإذا بالأنْوارِ تُضاءُ ساطِعَةً . رَأَتْ « نَسْمَة » الحُجْرَةَ خالِيَةً لَيْسَ بِها سِوى مِنْضَدَةٍ صَغيرَةٍ ، عَلَيْها صُنْدوقٌ مُرَصَّعٌ بالفِضَّةِ . أسْرَعَتْ تَفْتَحُ الصُّنْدوقَ ، ولَكِنَّها لَمْ تَجِدْ سِوى وَرَقَةٍ مَطْوِيَّةٍ ، وقَرَأَتْ بِها : « العَمَلُ كَنْزٌ » . وَضَعَتْ الوَرَقَةَ مَكانَها ، وأغْلَقَتِ الصُّنْدوقَ وخَرَجَتْ مِنَ الحُجْرَةِ .

في الحُجْرَةِ الثّانِيَةِ كانَ الصُّنْدوقُ مُرَصَّعًا بالذَّهَبِ ، به وَرَقَةٌ مَكْتوبٌ عَلَيْها : « العِلْمُ كَنْزٌ » . وعِنْدَما دَخَلَتْ

« نَسْمَة » الحُجْرَةَ الثّالِثَةَ وشاهَدَتِ الصُّنْدوقَ الَّذي بداخِلِها لَمْ تَشُكّ لَحْظَةً في أنَّهُ الكَنْزُ ؛ فَالصُّنْدوقُ تُحْفَةٌ فَنِّيَّةٌ رائِعَةٌ ، مُرَصَّعٌ بالفِضَّةِ والذَّهَبِ والأحْجارِ الكَريمَةِ . لا شَكَّ في أنَّهُ يَحْتَوي عَلى كَنْزٍ أكْثَرَ مِنْهُ رَوْعَةً . . . وبداخِلِ الصُّنْدوقِ وَجَدَتْ « نَسْمَة » وَرَقَةً كَبيرَةً بِها هَذِهِ الكَلِماتُ :

« إذا كانَ العَمَلُ والعِلْمُ هُما كُنوزُ الدُّنْيا ، فالبِرُّ والتَّقْوى والإيمانُ والإحْساسُ هِيَ كُنوزُ الآخِرَةِ .

« أَحِبَّ الخَيْرَ لِلنّاسِ .

« إذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ .

« العَمَلُ الصّالِحُ يَبْقى لِلإنْسانِ .

« هَذِهِ الكُنوزُ لا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ ؛ مَنِ امْتَلَكَها وعَمِلَ بِها عاشَ سَعيدًا في الدُّنْيا والآخِرَةِ . »

أغْلَقَتْ « نَسْمَة » بابَ الحُجْرَةِ الثّالِثَةِ وعادَتْ إلى مَنْزِلِها راضِيَةً سَعيدَةً لأنَّها كَشَفَتْ سِرَّ المَنْزِلِ المَهْجورِ . وعَرَفَتْ حَقيقَةَ الكَنْزِ المَوْجودِ ، وقَدِ امْتَلأَتْ نَفْسُها ثِقَةً

بِقُدْرَتِها ، فَحَزَمَتْ أمْرَها ، وقَرَّرَتْ أنْ تَتَسَلَّحَ بالعِلْمِ ، وأنْ تَسْبَحَ في بِحارِهِ الواسِعَةِ ، وأنْ تَجْعَلَ عِلْمَها في خِدْمَةِ النّاسِ ، وأنْ تَتَزَوَّدَ بالإيمانِ الَّذي يَحْرُسُ العِلْمَ بِسِياجٍ مَتينٍ مِنَ الخُلُقِ القَويمِ . . عادَتْ « نَسْمَةُ » إلى مَنْزِلِها قَريرَةَ العَيْنِ ، مُسْتَبْشِرَةً بما اسْتَقَرَّ عَزْمُها عَلَيْهِ ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ – مُنْذُ شُهورٍ طَويلَةٍ – نامَتْ هادِئَةَ النَّفْسِ ، وراحَتْ في سُباتٍ عَميقٍ .

صَحَتْ « نَسْمَةُ » مِنْ نَوْمِها ، عَلى يَدٍ حانِيَةٍ تَهُزُّها ، وتُرَبِّتُ في رِفْقٍ خَدَّها . . لَقَدْ كانَتْ يَدُ أُمِّها تُوقِظُها لِتَناوُلِ الفَطورِ ، فَقَدْ تَأَخَّرَتْ في نَوْمِها . فَتَحَتْ « نَسْمَةُ » عَيْنَيْها فَإذا الشَّمْسُ قَدْ أشْرَقَتْ ، وغَمَرَ ضِياؤُها أرْجاءَ الغُرْفَةِ . وأحَسَّتْ « نَسْمَةُ » في جِسْمِها وعَقْلِها نَشاطًا ويَقَظَةً . وفَتَحَتْ ذِراعَيْها كَأنَّما تَسْتَقْبِلُ الحَياةَ الَّتي عَزَمَتْ عَلَيْها في صِدْقٍ ورَغْبَةٍ .

نَظَرَتْ إلَيْها أُمُّها في دَهْشَةٍ ، فَما لَمَسَتْ مِنْها قَبْلَ اليَوْمِ مِثْلَ هَذا النَّشاطِ المُتَوَقِّدِ ، وهَذِهِ الرَّغْبَةِ المُتَوَثِّبَةِ ؛ فَقَدْ كانَتْ في الكَثيرِ مِنْ أحْوالِها ساهِمَةً شارِدَةً . وسَأَلَتْها عَنْ

حالِها ، فَأجابَتْ « نَسْمَةُ » :

« إنَّني في خَيْرِ حالٍ ، يا أُمّي . »

وأخَذَتْ تَقُصُّ عَلى أُمِّها حِكايَتَها ، مِنْ بَدْئِها إلى نِهايَتِها ، ثُمَّ سَأَلَتْ أُمَّها بَعْدَ أنْ أكْمَلَتْ حِكايَتَها : « هَلْ ما حَكَيْتُهُ لَكِ هُوَ واقِعٌ عِشْتُهُ ، أمْ خَيالٌ تَوَهَّمْتُهُ ؟ إنَّني ، يا أُمّي ، لا أسْتَطيعُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الواقِعِ والحُلْمِ . »

رَبَّتَتْ أُمُّها كَتِفَها ، وقَبَّلَتْها في جَبينِها ، وقالَتْ : « الحَمْدُ للهِ ، فَقَدْ بَرِئْتِ مِنَ الأحْلامِ ، وعُدْتِ إلى أرْضِ الواقِعِ ، وعَزَمْتِ عَلى مُواصَلَةِ حَياتِكِ بِجِدٍّ ونَشاطٍ . »

وتَناقَلَ النّاسُ ما حَدَثَ لـ « نَسْمَةَ » وأُضيفَتْ حِكايَتُها إلى ما قَبْلَها مِنْ حِكاياتٍ عَنْ هَذا القَصْرِ المَهْجورِ ، و وَشّاها كُلُّ مَنْ نَقَلَها بِما حَلا لَهُ مِنْ تَخَيُّلاتٍ . وجاءَتْ بَعْدَها حِكاياتٌ لأشْخاصٍ كَثيرينَ ، كُلٌّ يَدَّعي أنَّهُ دَخَلَ القَصْرَ المَهْجورَ ، وعَرَفَ سِرَّهُ . وقَدْ تَكونُ هَذِهِ الحِكاياتُ حَقيقَةً أو خَيالاً حَتّى كانَ ذَلِكَ اليَوْمُ الَّذي اسْتَيْقَظَ فيهِ النّاسُ ، فَأصابَتْهُمُ الدَّهْشَةُ ، و وَقَفوا حَيارى مُتَعَجِّبينَ : لَقَدِ اخْتَفى القَصْرُ المَهْجورُ !

المحتويات



بَائِعُ السَّعَادَة

وَقصص أخرى

الدكتورة غراء حسين مهنّا

مَكتبَة لبنَان نَاشِرُون